صفحات درامية من تاريخ
الثورة الثقافية الصينية

رواية

شكرًا للحياة

دع مئة زهرة تتفتح

Telegram:@mbooks90

فنغ جي تساي

ترجمة:

مي عاشور

kalemat

إلى الذين عانوا على مدار عشر سنوات كارثية.

استهلال

ها قد قطع القطارُ ثلاث محطات، ولا تزال المهاجعُ الأخرى للمقصورة فارغة، فعلى الأرجح لن يأتي شخصٌ آخر، أحمدُ الله من كلّ قلبي على ذلك! ففي الرحلات الطويلة، إن لم تكن بصحبة رفيق تعرفه جيداً، فمن الأفضل أن لا يكون فيها رفيق تفرضه الرحلة عليّ مصادفة، وأن أكون وحدي على حريتي. وخاصّة في هذه السنوات، ربما بسبب أن العلاقات بين البشر صارت مرعبة، وأصبح الخطر مختبئاً ومتربّصاً في كلّ مكان، واحتمالية الوقوع فريسة له واردة إن غفلت ولم تكن حذراً. فأنا دائماً ما استمتع بمرافقة نفسي؛ أفتش عن الطمأنينة وسط السكون. هل أكون حرّاً فقط في الأماكن الخالية من الناس؟ وهل للحياة طعم في الأماكن الخاوية من البشر؟

كانت السماء قد توشّحت بسواد الليل قبل بضع ساعات. فجأة صدم عينيّ ضوءٌ قوي منبعث من الخارج، فأسدل عليهما غشاوة، ما لبثت استوضح إذا ما كان هذا بفعل قطار قادم، أم لأننا قد وصلنا إلى محطّة ما، حتى توقف القطار؛ لدرجة أن الماء الموجود في الكوب انسكب نصفه بفعل هزته العنيفة عند الوقوف. في تلك اللحظة، بدا وكأن إيقاف السائق للقطار بهذا الشكل، هو إفراغ لغضبه في الركاب. لا أدري في أية مقصورة استفاق طفل فزعاً، وشرع في البكاء من هول الارتجاج. ألصقتُ وجهي على الزجاج البارد للنافذة متأملاً المنظر خارجه، كنا قد وصلنا إلى محطّة **جوه جيا ديان** الموجودة على سهل **نهر لياو**. ولكنني لم أرَ حتى خيالاً لأي مخلوق يقفُ بين الأعمدة الخرسانية الممتلئة بالشعارات، فكل ما رأيته كان كتلة ورقية من الملصقات الجدارية التي أطاحت بها الرياح الباردة، تتدحرج بخفّة على الرصيف مثل

الكرة.

انطلق القطار مجدّداً فور إطلاق الصفّارة وإغلاق الأبواب. يبدو أن هذه المقصورة ستكون لي وحدي الليلة. تمدّدتُ، وأطفأتُ الأنوار، وتركتُ نور الحائط الموجود في أعلى السرير مضاءً، ووسط الإضاءة الخافتة، غرقت في التفكير وأطلقت العنان لخيالي، وقرّرت أن استمتع كما يروقُ لي براحة البال المصاحبة للوحدة، ولكن فجأة فُتح باب الغرفة.

أفٍّ، لقد جاء شخصٌ ما!

نهضتُ بسرعة وفتحت النور، ولكنني لم أرَ شخصاً يدخل، بل رأيت صندوقاً ثقيلاً من الورق المُقوّى تحمله يدان. وعندما وُضعَ الصندوق، ظهر من خلفه رجلٌ في منتصف العمر. وبينما كُنت أستعد لإلقاء التحية عليه، زفر بعنف، وخلع معطفه الكبير المُثقل بالصقيع، ورماه فوق السرير، ثمّ استدار وأدخل حقيبة سفرٍ مهلهلة، مكسورة السحّاب، ومربوطة من منتصفها بحبل، كما وكانت معه أيضاً حافظة قماشية للّوحات، خضراء اللون، مُنسلّة الجوانب، داكنة سوداء من فرط الاتّساخ.

Telegram:@mbooks90

أغلق الباب فور وضع حاجياته بالداخل. كانت حركته متوتّرة، تشي وكأنه قد ركب دون أن يقطع تذكرة. لم يكترث بي عندما دخل، بل رفع وجهه، وأخذ يبحث عن مكان ليضع فيه ذلك الصندوق الضخم. انتظرته حتى يجلس، وسألته: «الطقس شديد البرودة في الخارج، أليس كذلك؟»، ولكنني فوجئت بتظاهره بعدم سماعه لما قلت، نهض ثانية وأخذ يتلفّت حوله، ثم نقل الصندوق فوق الرفّ الذي يعلو الباب. وبينما كنت على وشك أن أسأله إن كان يحتاج إلى مساعدة، عندما رأيته يرفع الصندوق بصعوبة، أخرج بقوة

ريحاً غليظة الصوت من مؤخرته، ارتطمت بوجهي الذي كان في مواجهتها.

لم يسبق لي أن رأيتُ شخصاً همجيّاً، عديم الذوق بهذا الشكل! والأدهى من ذلك، أنه بعد أن وضع الصندوق، لم يعتذر لي. بل رمقني بنظرة بعينيه الرماديتين اللتين تُشبهان عيني سمكة نافقة. وعندما اصطدمَت عيناه بمرآي، بدا وكأنه رأى شيئاً مقززاً، يبعث على الانزعاج في النفس! وفي الحال، تنبّأت بأن رحلتي التعيسة قد بدأت لتوّها.

قرّرت ألّا أكترث ثانية بهذا الرجل، أسندتُ رأسي، وتظاهرتُ أنني قد غفوتُ. أما هو فلم يغمض له جفن، كان يصدر جلبة باستمرار. في البداية أشعل كبريتاً ليدخّن سيجارة، وكان نفثه للدُخان أشبه بالنفخ، ثم بعد ذلك سمعتُه يتمتم ببعض الكلمات محدّثاً نفسه بها: «ما هذا القطار البطيء»، «فلتُدفئ يديك»، «الليل المعتم، الليل المعتم، الليل المعتم...»، لدرجة أنني ظننت أنه مصابٌ بمرض عقلي. كان يفرك يديه ويتحرك، ولا يجلس طويلاً حتى ينهض ثانية، ويذهب ليمسك الصندوق، فيحدُث صوت خشخشة. فتحتُ عينيّ قليلاً، فرأيته يقف على رؤوس أصابع قدميه، ويغطي الصندوق بمعطفه، ولكنه لم يجلس بعدما انتهى، بل سحب معطفه مرة أخرى، وترك زاوية من الصندوق مكشوفة؛ كان هناك ثقبٌ في زاوية الصندوق أصلاً، ممّا أثار فضولي.

تُرى ما هو الشيء الذي يحويه هذا الصندوق، لا يتحمل البرد ويحتاج إلى هواء؟ من الواضح أنه كائن حيّ. في البداية ظننتُه ممن ينقلون خلسة الأشياء كالدجاج، والقطط، والكلاب؛ ولكن لماذا هي صامتة ولا تُصدر أصواتاً؟ بل وحتّى إن لم تكن لها أصوات، كالأرانب مثلاً، لكن حركتها بالتأكيد تُحدث

ضجيجاً. في تلك اللحظة، حدث الشيء الأغرب على الإطلاق. التفت الرجل برأسه صوبي، فظنني نائماً، ثم تسلّق السرير بخفّة، ووضع فمه عند الثقب الصغير الموجود بزاوية الصندوق، وعلى غير المتوقع، قال بصوت خفيض:

«أمللتَ الحبس؟ اصبر قليلاً، سنصل بمجرّد حلول الصباح».

اللعنة! قد يكون من تجّار البشر! ولكن صندوقاً لا يزيد طوله عن ذراعين لا يتسع لإنسان، يبدو على الأرجح أن ما بداخله طفل. ولكنه لماذا يحمل على ظهرهِ حافظة لوحات؟ هل أن التظاهر بكونه رساماً هو تمويهٌ جيد؟ انتظرته حتى يجلس، لأتفقده جيداً. ومن حسن الحظ أنني كنت أجلس في جزء ظليل؛ فكنت أنظر إليه دون أن يدري ما إذا كنتُ نائماً أم مستيقظاً. لمحتُ شعر هذا الرجل، كان أشبه بأعشاب الشتاء الجافّة المبعثرة. وكان وجهه الجامد مُعفّراً، وكأنه خرج من مكان حُشر بداخله. أما يداه النحيفتان فكانتا ممتلئتين بآثار نُدب، أهي ناتجة عن شجارٍ ما؟ عندما نظرت إليه ثانية، وجدت أن ملابسه كلّها قديمة، وكانت كلّ من كنزته الرثّة الممزقة، وياقة قميصه البالية تحتها، خاليتين من الأزرار. كان الزرّ الموجود أمام الصدر قد زُرّر في العروة الخاطئة. فهذا الرجل المسكين يبدو وكأنه واقع في مأزق، كمُذنِب هارب من السجن. ولكن عندما تفحّصتُه بدقّة، وجدت أن جسده كله كان ملطّخاً بالألوان؛ وكانت الآثار الجديدة للألوان تغطّي الأخرى القديمة. عجزت عن تحديد ما إذا كان الشعور الذي بثّه في نفسي بالعشوائية، والعفوية، وفي نفس الوقت بعدم السوقية، يشعّ من جسده أم من وجهه؟ أما حافّتا عينيه فقد كانتا حمراوين، تتركان في نفس المرء شعوراً بالكآبة. هل هو رسامٌ فقير ذو وضع صعب؟ كيف استطاع إذن أن يركب تلك الدرجة

ذات المقاعد المريحة ؟ وما هي علاقته بهذا الصندوق الغامض؟ عجز عقلي عن التوصل إلى استنتاج واضح لكل ذلك. فكلٌّ من الفضول والشعور بعدم الارتياح غير المفسّر، دفعاني إلى الخروج عن صمتي وسؤالي له:

«ماذا يوجد بداخل هذا الصندوق؟».

انتفض قائلاً: «لقد أفزعتَني، ألم تنم بعدُ؟». كان لونه قد خُطف من فرط الهلع، وكان منَ الواضح أن في داخل الصندوق شيئاً مريباً ما.

انتظرتُ بعد أن رمقني بنظرة متفحصة كالتي سبقَتها منذ لحظات، وقلت:

«أجب على سؤالي أولاً، وبعدها نتابع الحديث».

ولكنه على عكس ما قلته، قاطعَني، ولم يمنحني فرصة للتفوّه، حتى اقتحمني بسؤال محدّد للغاية:

«أنتَ كاتب؟ مضبوط. لم يختلط علي الأمر في ما أظنّ».

«أنا؟»، أحترت بمَ أجيبُه. فلم أفهم إن كانت كلمة «كاتب» هنا للتمجيد أم للإدانة. ارتسمَت على وجهي ابتسامة صفراء، وقلت: «كنتُ قد كتبتُ أشياء من قبلُ...».

«حسناً! في الحقيقة أنني عرفتُك بمجرّد أن رأيتك». وفجأة بدا عليه الارتياح، وتلاشى الهلع الذي ضرب وجهه كموجة، ثم أسند ظهره إلى الخلف، وقال: «لا يُمكنك أن تعرفني، فأنا واحد من قرّائك. كنت دائماً ما أرى صورك في الصحف. حتى أنني قرأت المقالات التي تنتقدك، ولا شك في أنّي قرأتها بقلق...».

فتحت هذه الجُمل أمامنا طريقاً للتواصل قبل أن نتعارف. وشعرتُ بأن شكوكي وظنوني فيه كانت بلا أساس.

«أنتَ...»، أردت أن أسأله شيئاً.

أخرج من جيبه علبة سجائر ممزّقة ومنبعجة، ثمّ سحب منها سيجارة لم يتبقَّ منها سوى الجزء الأخير، لم يهِن عليه أن يرميها، أشعلها وأخذ نفسين بشراهة، ثم نفثَ الدخان الذي سحبه بقوّة، وقال لي من وراء سحابة الدخان الكثيفة التي حالت بيننا: «سأحكي لكَ قصة!»، وعندما رآني مستغرباً لما قاله، أشار بإصبعه إلى الأعلى قائلاً: «ألا تريد معرفة حكاية هذا الصندوق؟ فهو أيضاً يحمل في داخله حكايتي. لم أحكِ قطّ هذه الحكاية إلى أحد، ولكنني أرغب في أن أسردها عليكَ...».

لمستُ ثقته بي من نظراته. ولا ريب إن ثقة الناس هي السعادة العظمى للكاتب. وحتى لو كُنتَ كاتباً جاداً وصارماً، فيمكن لك أن تقابل مثل هذه المواقف التي تؤثر في قلبك بعمق: شخصٌ غريب لا تعرفه، يكشف لكَ بورع عمّا يجول بخاطره، وما كان قد حبسه بداخله مطولاً. وكأن لا أحد سواك يهتمّ بذلك، بل ولن يستوعبه أحدٌ تماماً كما ستستوعبه أنتَ. إذن، فما سوف تحصل عليه هو قطعاً شيءٌ أكبر من مجرّد سرّ.

في تلك اللحظة، التفت برأسه، فصارت عيناه الرماديّتان في مواجهة الظلام الدامس والثلج الذي يغطّي الأرض خارج النافذة. ثبتت نظره هناك للحظات، ثم التفت برأسه ثانية، فجأة بدا وكأنه بدّل عينيه، فصارتا متوهّجتين، متوعدتين، وينبعث منهما بريق ما، وكأن ما بداخلهما شيء يوشك على الانشطار، ولا يحتمِل كبتَه أكثر من ذلك. أطفأ سيجارته

المشتعلة بين سبابته وإبهامه. «هذا ما حدث...»، ومن هنا بدأت حكايته. كانت الأوضاع في تلك السنوات متقلّبة، والتغيرات الطارئة كبيرة، ومهما كانت الأحداث التي سمعت بها غريبة عجيبة، ستبدو وكأنها عادية ودارجة، لكن من يتوقع أنه لا تزال في العالم مثل هذه القصة الفائقة للخيال والصادمة للقلب.

لقد سمح لي بكتابة هذه القصة. ولكنني من أجل سلامته، احتفظت بها مطولاً في قلبي، معتمداً على ذاكرتي في ذلك. إلى أن استطعت أن أخرجها إلى النور في هذه الأيام فقط، متحرّياً الدقّة التامّة والصدق في كتابتها.

الفصل الأول

اللعنة! لا تلُمني لأن هذه أول كلمة تخرج من فمي. فأنا لا أدري لماذا تقفزُ إلى ذهني بمجرد أن استدعي الماضي.

كان ذلك في بداية الستينيّات، حينما تخرّجتُ من كلية بكّين للفنون الجميلة. كنت قد تخصّصت في دراسة الرسم بالزيت، ما سوف أقوله ليس من باب التباهي بنفسي، ولكنني حقاً كنت من أبرز الطلّاب في الدُفعة، ويعرفني الجميع. هيّأتُ نفسي أنني قطعاً سأُرسَل إلى القطاعات المتخصّصة: كمتاحف ومعاهد الفنون أو دور النشر الفنية. بل وأن تلك القطاعات ستتهافت عليّ. سمعتُ من أقرب زميلة لي، أنّ تعييني أستاذاً مساعداً بالكلية أمرٌ محتمل. وحينها غمرتني حماسة كبيرة، كم تمنّيت لو استطيع الانخراط في المجتمع دفعة واحدة. كدتُ أن أحلّق طائراً من الفرح، وظللتُ أقول لنفسي طوال اليوم: «سأمسك فرشاة الرسم وأوثّق بها الحياة والمستقبل». ولكن ذهولاً أصابني لحظة استلامي «إخطار التسجيل»، وقراءتي له. كان مكتوباً عليه اسم الجهة المُرسِلة، وهي: محافظة **تشيان شي**((1)) المصنع الثاني للخزف، وهو مكان يصعب ذكره حتى في مزحة. في البداية ظننت أن هناك خطأ ما. ولكن عندما رأيت اسم «المُرسَل إليه» مكتوباً بوضوح: **خوا شيا يو**، وهو اسمي. شعرتُ أن تلك الورقة قد أسودّ لونُها؛ وكأن كلّاً من تطلعاتي وطموحاتي ومستقبلي وخططي وحبي الصادق لها، قد شُطب عليها في تلك الورقة الداكنة. وحتى إلى حين لحظة وصولي إلى محطّة قطار بكّين وانتظاري للقطار المتّجه إلى **تشيان شي**، كنتُ لا أزال أشعر أنني أحلم، بل وأنكرُ هذا التحوّل في مسار حياتي. لماذا؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ ما

الذي جرى بالضبط؟

تلاعب بي الشكّ حينها، وخطر في بالي أن طريقة النقل هذه، والتي بها «استخفاف بمصائر الناس والتعامل معها على أنها هباء منثور»، ما هي إلّا لعبة من طرف عميد الكلية. وذلك بسبب أن مفاهيمنا الفنية كانت مختلفة كلّ الاختلاف. فهو ببساطة، كان يعتبر الفن علماً نظرياً، بينما كنتُ أراه شيئاً حيوياً. لم يكنْ بيننا ثمة انسجام، وعلى عكس المتوقع، كان معظم زملائي في الصفّ يقفون معي. مما جرّح بشدّة احترامه لذاته... كيف سيسمح ببقائي في الكلية؟ آآآه، في الحقيقة أن كلّ هذا ظلم بيّن له. فهو ليست له أدنى علاقة بسوء طالعي. اللعنة، لن يخطر على بال أيّ أحد ما حدث... فلأعُد بعد قليل للحديث عن ذلك!

بدأ القدرُ يتلاعب بي ويعذّبني، فنفاني إلى مثل هذا المكان اللعين، لم يستقبلني أحدٌ لحظة نزولي من القطار، فلم يكن أمامي سوى أن أحمل الحقيبة على كتفي وأمضي قُدماً. كان قلبي يتأجّج غضباً كلما مشيت، وتملّكتني أكثر من مرة الرغبة في أن أولي ظهري وأعود، ولا أذهب إلى هناك أبداً.

ولكن بمجرد أن وقفتُ عند مدخل مصنع الخزف ونظرت إلى الداخل، حتّى دُهشت وتغيّر الأمر تماماً. أفلتُّ حقيبتي على الأرض فجأة؛ لأن المشهد الذي رأته عيناي كان يفوق الوصف، تمتدّ أمامي مساحة شاسعة مغطاة بالآلاف من قطع الفخّار المُشَكل الذي ينتظر دخوله إلى الفرن لكي يُفخر: زُبديّات كبيرة، وجِرار ضخمة، وصحون وخوابيَ ودِنان، وأوعية شتّى. كان الطين المُشكّل الذي لم يُفخر بعدُ يحمل الجمال البدائي والفطري، كان خشناً سميكاً وكذلك

مستديراً، ذا لون أرجواني وأبيض.

كانت أذرعُ العاملين في أفران المفاخر لامعةً، وظهورهم الصلبة سوداً براقة من فرط ما لسَعتها الحرارة. أما الأفران الضخمة الموجودة في الخلفية، فكانت قد طُليت باللونين الأحمر القرميديّ والأصفر الترابي. لم أرَ من قبلُ مثل هذه الألوان البسيطة والمُبهجة، وكذلك الحادّة والقوية. إن ألوان الحياة تنبض بالحيوية دائماً وأبداً! كما أنها غاية في العذوبة وكذلك متفرّدة. أُغرمت بهذا المكان فوراً. ودخلتُ بحماسٍ لأُسجّل حضوري.

كان أمين سرّ لجنة الحزب بالمصنع يُدعى **لوه تييه نيو**، وقد أعطاني مظهره انطباعاً بأنه بائعٌ متجوّل، كان قصير القامة ذا جسد منبعج مثل علبة أحذية مكبوسة. أما أسلوبُه في التعامل معي، فقد كان غاية في العناية والاهتمام، وكأنه يُخفي شيئاً ما خلف لُطفه هذا. اصطحبني في جولة إلى الأفران وداخل الورش. تجاهلني العمال، بينما اختلس بعض الشباب النظرات إليّ بشيء من الفضول والاستغراب، ثم انصرفوا مجدّداً منهمكين في أشغالهم، أما العاملون الذين كانت أعمارهم كبيرة، فكانوا لا يرفعون رؤوسهم من الأساس. ظننتُ أن الموجودين في الأماكن النائية المنعزلة تتولّد لديهم مشاعر خوف من الجامعيين الدُخلاء. كنت أبتسم لهم بودّ وحميميّة. وفي الحقيقة فقد كانت كلّ تخميناتي خاطئة للمرة الثانية، لأنهم لم يكونوا يتعاملون مع الآخرين بنفس الطريقة هذه.

لو لم يسبق لكَ الاطلاع على صناعة الخزف من قبلُ، فربما سيصعب عليك تخيّل مدى غرابة ذلك العالم. فإن الوعاء الخزفي الذي تستخدمه يومياً، يمرّ بعدّة مراحل لصناعته، لن أتحدث عن الحافظات والأواني، فكلّ جزء فيها

أنيق ومُشبع بالتعب ويُخفي شيئاً من الغموض. فإن الصبيّات اللواتي يصببن طين الخزف، يحملن كلّ شهر براميل خشبية بها ما يفوق الستة أطنان من طين الخزف، لتُرسل إلى القوالب. تحت الورش هناك مواقد أرضية، مثل طناجر البخار المصنوعة من البامبو، تمدّها بحرارة شديدة، لتسرّع من عملية تجفيف الطين المُشكّل. في الأيام الحارة التي تشوبها الرطوبة، تعرّي الصبيّات اللائي لم يُزوّجن بعدُ أذرعَهنّ عندما يخنقهنّ الحرّ، دون أن يكترثن بشيء. يقول البعض: «إن كلّ قطعة من الخزف مشبعة بعرق صانعها؟»، ولكن هذه المقولة فارغة، لأن المقولة الأدقّ ينبغي أن تكون: «إن الخزف الأكثر أناقةً وجمالاً في العالم كله، يخرج من هنا!».

لمحتُ رجلاً عجوزاً ضخماً قويّ البُنيان يصنع آنية في ورشة تشكيل الخزف. كان يضعُ كوماً من الطين اللدن فوق شيء أشبه بطاولة، ثم يضغط بقدمه على شيء ما بالأسفل، فترتفع كلتا يديه، لم أرَ كيف تتحرك يداه، ولكن ما رأيته هو أن ما صنعه قد تحوّل إلى زهرية كبيرة بشكل سلس وزاهٍ. وإن خزف هذا المكان يختلف خزف عن **جينغ ده جن**((2))، فهو ليس مستوياً ودقيقاً، ولكنه يبدو ثقيلاً ومتيناً، مثل عاصفة عاتية، خاصة تلكم الزهريّات التي يشكّلها الرجل العجوز، فكل منها نابضٌ بالحياة، له سِمة وشكل، وكأنه إن وُضعت له عينان، فسينطق متكلّماً! تأثرت بمهارته الحرفية، وانطلق من فمي سؤال له:

«كيف صنعت هذا أيّها الحِرفي القدير؟».

لكنه في الواقع لم يفرح بهذا النوع من الإطراء، فقد التفت بنصف وجهه الممتلئ، وردّ عليّ بجمود:

«صنعتُها بيديّ».

كانت هذه الجملة أشبه بحفنة من طين كتمت على قلبي. شعرت بحنق شديد، وقرّرتُ أنني لن أحتك بهذا الرجل ثانية إلى الأبد. لكن لا تعتقد أن بوسعي فعل ذلك، فطبيعتي لا تُضمر الضغينة للبشر، وأنا أنسى كلّ ما مضى.

نادى **لوه** أمين سرّ لجنة الحزب، على شابٍّ لطيف نحيف وطويل القامة، بشرتُه مصقولة كالحرير، عندما رآني تهلل وجهه لدرجة أن ضاقت عيناه. كان اسمه **لوه جيا جو**، قائد مجموعة الزخارف، والذي في ما بعد رئِسني. كنت سعيداً جداً، لأنه كان أول شخص ودود ألقاه. اصطحبني إلى الفناء الخلفي لرؤية «السكن»، حتى أنه صمّم على أن يساعدني في حمل حقيبتي، قال إنه سمع منذ فترةٍ بقدومي، وكان ينتظر ذلك بفارغ الصبر، وقال كذلك إنه سيعتبرُني أستاذَه.

ما أقوله ليس به ادّعاء أو زيف، فعندما كنتُ في كلية الفنون الجميلة، دائماً ما كنت أشعر بهذا الاحترام المبجّل، لكوني فنّاناً متخصّصاً. ولكني علمتُ في ما بعدُ، أن **لوه جيا جو**، له وضع مختلف تماماً في المصنع، فهو حفيد خال السيد **لوه** أمين سرّ لجنة الحزب، شاب مثقّف من الدرجة الأولى، متّقد الذكاء، جاء إلى المصنع وهو صبي لم يبلغ العشرين بعد، كان يعرف جيداً كلّ أنواع الرسوم والزخارف على الخزف والتزجيج متعدّد الألوان، بشكل أكثر تمكناً من استخدام السيدات العجائز للزيت والخلّ في الطهي، وكذلك كان بارعاً في رسوم الأشكال والرسم الصيني التقليدي، والرسم بألوان الماء، ويعرف كتابة الخطّ الارتجالي والخط الصيني القديم، وقد علّم نفسه بنفسه كلّ هذه الفنون. وهكذا فإن من يتمتّع بكل هذه المهارات، في مركز محافظة

مثل هذا، يُعتبر قدّيساً. ومن وجهة نظري فهو لم يصِل ويحقّق كلّ ذلك معتمداً على ملكاته ومواهبه وحسب، بل على ذكائه أيضاً.

أشار **لوه جيا جو** إلى حُجرة متصدّعة وقال لي:

«لا تتذمّر. كلّ العاملين في المصنع هنا سكّان محليّون، وليس لديهم سكن. هذه الغرفة كانت قبل عدة سنوات لمحاسب قريب لي جاء من **تشين خوانغ داو**((3)) للبحَث عن عمل، وكان أيضاً يرسم، ولكن لم يكن لديه مكان ليلوذ به، فبقي هنا. السكن أساساً مكوّن من غرفة داخلية وأخرى خارجية، بعد أن رحل ذلك الرجل تكدّست بالأنقاض. وعندما سمعتُ أنك ستأتي، أفرغتُ الغرفة الخارجية على وجه السرعة، وها أنا أنتظر لغاية أن يفرغ مكان لأنقل إليه الأشياء الموجودة في الغرفة الداخلية...».

تفحّصت الغرفة لوهلة، إنها حقاً لا تصلح للسكن. كانت مساحتها كلها لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة أمتار مربّعة، صغيرة جداً، أشبه بطين الفخار الذي لم يدخل بعدُ إلى الفرن ليُحرق. كانت أرضية الغرفة من التراب الأصفر، وقد صُبغت جدرانها بالأبيض، ولكن معظم طلائها كان قد تقشّر. أما سقف الغرفة فكان مجرّداً من الإسمنت، بل وتظهر منه رافدة حالكة مغطّاة بالخوص ولحاء الشجر. لم يكن هناك من باب بين الغرفتين الداخلية والخارجية، بل كان ما يفصل بينهما هو لوح خشبي تنبعث منه «رائحه مخازن» موحشة، باردة، وممتزجة بالتراب العطن المتراكم. كما كانت تحتوي على قطع أثاث بسيطة محدودة جداً، أما حافة النافذة فكانت مفروشة بطبقة من جذور أعشاب لم تُنظّف بعد... ماذا، أتعتقد أنني انزعجتُ؟ بالطبع لا، فأنا قطعاً لا أعبأ بهذه الأشياء مطلقاً. ولو أنّي خُيّرت بين قصر وغابة، فسأختار الغابة

قطعاً؛ لأن الطبيعة تمنحني أحاسيس لا حدود لها، بوسعي أن أحولها إلى فنّ. وبخاصّة ضفّة النهر الممتدة هذه، والبراري الهادئة التي تطلّ عليها نافذتي، وقد اندمجت مع كلّ شيء دميم ومجرّد من الزينة بداخل حجرتي، لتصير شكلاً من أشكال البساطة وسحر الطبيعة، وكذلك نفحةً من نفحات الشعر. كم هو رائع!

أعتقد أنّي حينها كنت في مطلع العقد الثالث من عمري، تركت كلية الفنون الجميلة، ولكنني لم أترك الفنّ، كنت ممتلئاً بحساسية فنّية تجاه كلّ شيء محيط بي. وكأنني أرى كلّ الأشياء، النابضة بالروح أو حتى الجامدة منها، تبعث ضياءً، وتزفر أنفاساً، وتُصدر أصواتاً. حتى أن نور الشمس، والرياح، والظلال المتحركة للأشجار، والغبار الهادئ الرقيق اللامع مثل الكريستال، كانت لديها مشاعر. ألا تشعر بأن الليل أكثر شاعرية، بل وبه ألوان أكثر ثراءً من ألوان الصباح؟ فأنا مرهف الحس ولا تهدأ مشاعري، حدّ الشعور بأن أعصابي ممتدة لتخترق جلدي. يا إلهي، يا لها من قوّة تحرّك مشاعر الذات. فإن في الحسّ المرهف سعادة حقيقية. ولكن أكثر ما كان يستهويني هو بساطتهم ومزاجهم الحقيقيّ الصادق. فإن مزاجهم هذا يجعل كلّ وجه من وجوههم لوحة في حدّ ذاتها. فدائماً ما كنت أعبّر لهم عن مشاعري الجيّاشة التي يصعب تحجيمها.

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ يتسلل إلى قلبي إحساس أنهم لا يبادلونني نفس الشعور. فنادراً ما كان أحدٌ منهم، سوى **لوه جيا جو**، يتكلّم معي. أردت أن أرسمهم، ولكن لم يوافق أحد منهم. أعرف أنّ القرويين أصلاً يُسعدون كثيراً إذا ما قمت برسمهم. ولكن لماذا كانوا يتجنّبونني دوماً بهذه الطريقة؟

ذات صباح باكر، بينما كنت أغسل أسناني منكفئاً على صنبور المياه، ربت سائق المصنع **تسوي دا جياو** على كتفي فجأة، وهو يسألني بصوت أجشّ ونبرة عالية، وبشكل غاية في الجدية:

«أنتَ أيها الشاب، ألست معادياً للثورة؟».

التفتُّ مشدوهاً مشوّش الذهن من سؤاله، ولكنه كان قد مضى بمجرد أني أمسكت بكوبَ الماء لأتمضمض من أثار المعجون في فمي.

كان **تسوي دا جياو** طائشاً إلى حدّ ما، ولكن يبدو أنه لم يقُل ما قاله عبثاً. لم أُطق الانتظار، وذهبت في الحال للبحث عنه والاستفسار منه، حدّق في وجهي وقال لي بفظاظة: «لا تدّعي عدم معرفتك، فالجميع في المصنع يعرفون ذلك الأمر، فأنت هنا بهدف الإصلاح». وضعني أسلوبه هذا في خانة الذين اقترفوا ذنباً لا يُغتفر.

عندما سمعت كلامه هذا، ربطت الأمر بـ «الإخطار»، واللطف المزعوم لأمين سرّ لجنة الحزب، وكلّ الوجوه الهاربة مني، كان هناك سبب أصلاً وراء كلّ هذا. أنا لم أقترف أي ذنب، ولكن بعد سنة 1957، طرأت الكثير من المستجدّات على الحياة، كان من بينها الوشاية. تُرى لمن قلتُ سرّاً كلاماً يُدينني؟ فمن منا يتذكّر كلّ ما قاله، بحق السماء! وبغضّ النظر عن أي شيء، شعرت وكأن هناك شيئاً يتتبعني في الظلام، بل ويحيط بي ويهدّدني. صار قلبي لا يتوقّف عن النبض بشعور الخوف والرهبة.

عندما استوضحتُ تأثير ذلك الأمر، تغيّر شعوري بالكامل تجاه المحيطين بي، وربطتُ علاقته بتجاهل الناس لي. فقدتُ رغبتي في الاحتكاك بأحد،

وكأنني حقّاً قد أقدمتُ على فعلِ مصيبة أو أمرٍ سيّئ، كان هذا الإحساس غاية في الإزعاج. بدأ إحساسي الفنّي بكلّ الأشياء من حولي يتلاشى تدريجياً. وكأنّ ألوان الحياة قد بهتت. كنت أعمل طوال النهار، وفي المساء بعد الانتهاء من عملي، أحبسُ نفسي في غرفتي، فاقد الشغف في فعل أي شيء، حتى جفت فرشاة الرسم وصارت قاسية كالمخراز. أحياناً كان يجول في خاطري هاجس: «مستحيل ألّا أرسم!»، ولكن النتيجة تكون أن كلّ ما أرسمه يغدو جامداً وبلا روح... بل وخالياً من كلّ شيء، إلى درجة أنني كنت أفقد شغفي في النظر إليه ثانية بعد الانتهاء من رسمه.

في ذلك الوقت كان متنفّسي وعزائي الوحيد، هو نافذتي الخلفية تلك. وضعتُ كتباً تحت وسادتي لأرفعها، فسمح ذلك لنظراتي بأن ترنو خارج إطارها. إن أي إطارٍ لنافذة في العالم هو في واقعه إطار لوحة، وما هو بداخل إطار اللوحة شيء نابض بالحياة. وكان بداخل إطار لوحتي نهرٌ رمادي، قديم ومتمهّل الجريان، كنت دائماً ما أرى نهايته المتداخلة مع الأفق. كان قاع النهر ضحلاً، لا يعبر فيه أي قارب من قريب أو بعيد، وعلى ضفتيه شاطئ طيني يابس احترق بفعل حدّة الشمس حتى صار صُلباً يابساً، وتحولت شقوقه إلى قنوات صغيرة وعميقة، وكذلك بعض الصخور الناتئة المشقّقة المتناثرة عليه، والتي كانت تتحلّى بقدر من الشموخ. أما العشب فكان هزيلاً بطبيعته، فقد نضُب ماؤه إلى أن أصفرّ لونه. كانت ضفتا النهر تنحدران ممتدّتين على الجانبين، ثم تتبددان مثل الدخان، متحولتين لمساحة قاحلة مقفرة مترامية الأطراف، تغمرهما أزهار الجيان((4)). فمن جانب، كان الضباب يبتلع المساحة القاحلة فتختفي بداخله، لدرجة أنه كان يصعب رؤية حدودها

المترامية، حتى في أيّام الصحو التي تكون فيها الشمس قرمزية. ومن جانب آخر، وعلى بعد أكثر من عشرين كيلومتراً، كان يقطعها حزام كثيف ومتشابك من الغابات، كان بمثابة جدار غامض، حيث تحلّق الطيور ماضية من هناك، مخلّفة عاصفة هوجاء عنيفة، وترتحلُ الغيوم منه، لينفجر شعاع الشمس البرّاق كالزجاج في الأفق، فتتفتّح أعين كلّ شيء على وجه الأرض.

حين كانت الطيور تضرب بأجنحتها وهي آتية من فوق الغابات، كانت تُضفي حيوية وحرّية وصوتاً على المنظر الشاسع والموحش والمنعزل الذي تطل عليه نافذتي، وفي نفس الوقت كانت تبثّ في نفسي شعوراً براحة البال والطمأنينة والسكينة. فعندما كانت تمضي الطيور من فوق هذا الحزام الغابيّ متلاشية في الأفق، كان يُخطف قلبي، وكأنها تأخذه معها إلى البعيد.

من تُراه سيصير رفيقي، ويرضى بأن يدخل حياتي الرماديّة هذه، من تُرى؟

الفصل الثاني

كان ذلك تقريباً في العطلة الرسمية التي تلَت الشهر الذي جئتُ فيه إلى المصنع. استفقتُ بعد نوم عميق، وفتحتُ الباب، ففُوجئت بما لا يخطر على بال؛ قفز شيءٌ غريب أمام عينيّ، فأفزعني. كان كلباً حالك السواد، منَحني إحساساً بأنه شرس وفي منتهى القوة. كان جسده كله مكسواً بالشعر الأسود، ما يحجب رؤيَة وجهه باتّضاح. وأذناه الكبيرتان كانتا تتهدّلان على رأسه. ومن بين فمه نصف المنفتح يتدلّى لسانه الورديّ الرخو الذي كان يهتزّ لامعاً كلما لهث. إن الكلاب الشرسة تلهث تماماً بنفس الطريقة. لم ينبح، كان جالساً بثبات في مكانه لا يتحرك، يفتح ببسالة صدره الممتلئ بالشعر الغزير الناعم كالقماش المخملي، متخذاً وضعية فارس مهيب ومتمرّس. نويت الخروج لتسخين الماء، حاملاً بيدي قارورة حافظة للحرارة، اجتزت عتبة الباب مرّات عديدة، ولكن نظراته الصارمة نهتني عن فكرة الخروج، ظلّ كلّ منا متسمّراً في مكانه لعشر دقائق، لم يُبدِ أن لديه النيّة لإفساح الطريق أمامي. حاولتُ أن أمرّ متفادياً إياه. إذ بناءً على تجاربي السابقة مع الكلاب عندما كنت في القرية، أنها لا تنجذب إليكَ إذا ما تجاهلتها. ولكن كان من الواضح أن هذا الكلب قد أتى قاصداً إيّاي تحديداً.

Telegram:@mbooks90

خرجتُ من الباب، ولكنّه ظلّ ثابتاً في مكانه، مشيتُ خطوتين إلى الجانب، فنهض في الحال، وسار أمامي بخطى ثابتة، ثم جلس على بعد خطوتين منّي، جرّبت أن أمشي من الناحية الأخرى، ولكنه منعني بنفس الطريقة، ولم يسمح لي بالخروج مهما فعلتُ أو قلت له. وقعتُ في ورطة، صرت أحمل قارورة فارغة بيدي، وأحملق في هذا الكلب. لا أعرف ما الذي يريده مني.

وفجأة لاحت أمامي ضحكة؛ كان **تسوي دا جياو** الطائش يستندُ إلى جدار المخزن وينظر إليّ ساخراً. استفزّتني نظراته، فوضعت القارورة، ونظرت إلى الكلب قائلاً له: «لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل؟ سأضربك!»، استدرت وسحبت مقشة طويلة كانت بجوار الباب. وفي تلك اللحظة سمعت صيحة مبحوحة بها نبرة شيخوخة:

«توقف».

كان **لوه تشانغ جوي** -العجوز الذي يُشكّل الآنية، والذي صدّني في اليوم الأول لقدومي إلى المصنع- أتياً من بعيد. نظر إلى هذا الكلب وقال بصوت أجش:

«أذهب من هنا، يا **فاحم**».

تراجع الكلب خطوة إلى الوراء. دعوت **لوه تشانغ جوي** للدخول إلى غرفتي، كانت هذه هي المرّة الأولى التي يزورني فيها، أردت أن أصبّ له الشاي... ولكنني أشرتُ إلى قارورتي الفارغة، وإلى ذلك الكلب الذي يقف كحارس على بابي، فقال لي **لوه تشانغ جوي** مبتسماً:

«لا تخف منه، هذا كلب ضالّ، لا يأتي بانتظام إلى هنا، سيذهب من تلقاء نفسه بعد قليل».

فقلت: «لكن لا يبدو عليه أنه كلب ضالّ».

«آه، إنّ لديك فراسة، كيف لاحظت ذلك؟».

أجبته: «إنه مجرّد إحساس». كانت هذه الكلمات الثلاث تدور على ألسن طلّاب الفنون بشكل دائم.

تجهّم وجه لوه تشانغ جوي.

سألته: «ما الأمر؟».

«لا شيء. إنه في الحقيقة كلب بيت. ربّاه في الأصل عامل طلاء يسكن شارع **أر داو**. في ذلك الوقت كان شعره لامعاً، وكان ذلك العامل يقول إنه يسرّح له شعره بالزيت بفرشاة مخصّصة للحيوانات. السنتان السابقتان كانتا عجفاوين، فلقد شحّت المحاصيل وقلّت الحبوب، والحيوانات بطبيعتها أكولة، فعجز عامل الطلاء عن إطعامه، وأرسله على مضض إلى مصنع للأخشاب، ولكن من يتوقع أنه بعد أن أرسله إلى هناك وعاد إلى بيته، فوجئ بالكلب وقد سبقه في العودة إلى البيت. وفي المرة الثانية، اضطر إلى إرساله إلى مصنع طابوق بعيد جداً خارج المدينة، وأخذ سلسلة وربطه بها إلى هيكل آلة رافعة، خوفاً من أن يهرب مجدداً. ولكن ذات ليلة مطيرة، عاد دون توقُّع، وكان جسدُه كلّه مبللاً، وما زال جزء من السلسلة معلّقاً في رقبته، والدم يغمر قفاه، إذ كان قد قطع السلسلة بعنف! ولكنه بعد أن عاد هذه المرة، كان دائماً ما ينام واضعاً رأسه أسفل السرير، لا يخرج مهما ناداه، ولا يأكل أي شيء يعطيه له، وكأنّه يفهم سبب تسريبه. يبقى على هذا الحال، حتى يقرصه الجوع ويكون على وشك أن تصعد روحه، وحينها فقط يأكل، ولكنه لا يأكل كثيراً، وحينما كان يتضور جوعاً، لا يأكل خلسة من البيت، بل يخرج باحثاً عن أي شيء ليأكله. ما قولك هل هذا الكلب ذكيّ أم لا؟».

«كيف تحول إلى كلب ضالّ إذن؟». كان قدَر هذا الكلب مثل مغناطيس جذبني إليه بشكل أعجزُ عن تفسيره.

«في العام الماضي، انتقل عامل الطلاء إلى **تانغ شان**((5)). كانت تربية الناس للكلاب في المدن الكبيرة أمراً غير دارج، سقى عامل الطلاء الكلب خمراً حتى ثمل، ثم سرّبه من البيت. وعندما أفاق الكلب وجد نفسه مشرّداً دون مأوى، ومن ثم تحوّل إلى كلب ضالّ، كان يتجول هائماً طوال اليوم، ويتسلّل إلى البيوت لسرقة الطعام. ويأتي عادة إلى مصنعنا -إذ كان يُلقى دائماً بقايا العظام والخضروات خلف قاعة الطعام- في البداية طرده **تسوي دا جياو**، وفي ما بعد هجم على لصّ سرق إناءً، فعُدّ هذا له إنجازاً، ومن ثم لم يطرده أحد، بات يُسمح له بأن يأتي وقتما يشاء، ويغادر وقتما يشاء».

«لماذا لم يأخذه أحد ليربّيه؟».

«في البداية فكّر **لوه** أمين سرّ الحزب أن يربّيه، ولكن الكلب لم يتبعه. وذلك على الأرجح بسبب أن عامل الطلاء عامله بقسوة بالغة، ففقد الثقة في كلّ البشر!».

ابتسم **لوه تشانغ جوي**، ابتسامة تحمل مغزى ما؛ دائماً هناك شيء ما يتوارى خلف ابتسامات المسنّين. قال: «بالإضافة إلى ذلك، فبمجرّد أن يضلّ حيوان منزلي، يكون من الصعب جداً أن يتغير ويعود مثلما كان. إنه كلب ممتاز، وهذا كلّ شيء».

سألت: «ما اسمه؟».

«**فاحم** هو الاسم الذي اختاره له عامل الطلاء»، قال **لوه تشانغ جوي**.

نظرت إلى **فاحم**، ذلك الكلب فريد الطباع، والذي ساقه قدره إلى السير في دروب مظللة بالصعاب والمهالك. تغير شعوري كلياً تجاهه. إن جسده المغطّى

بالشعر الغزير، يخفي العديد من تفاصيل الحياة التي تجعل المرء يشهد متحسراً. ولكن كيف يمكن أن يتشابه ما حل بهذا الكلب، مع ما يحل بالبشر!

« تعال يا **فاحم**»، ناديته. تبددت كل مخاوفي تجاهه. كان صوتي في منتهى الوذ والعطف، وكأنني أحدث شخصاً

أجزم أن هذا الكلب استثنائي، يفهم البشر. فبمجرد أن سمع صوتي، انتفض كل جسده ناهضاً، شب ثم دار لمرتين، ثم عاد ليجلس ثانية. في ذلك الوقت لم يستحضر شراسته المهلكة.

قال لي **لوه تشانغ جوي**: «لا تُعره اهتماماً. الجميع يقولون إنك ماهر في الرسم، وأنا اليوم جئت لأرى رسمك».

ارتبكت عندما علمت بسبب مجيئه، وفي نفس الوقت شعرت بالامتنان لثنائه.

صعب أن تتخيل كم أن حماية صنعة الخزف مشددة في المصنع. فإن أكثر من مئة عامل لقب عائلاتهم هو **لوه**، حتى لا يتسرب سر الصنعة خارج المصنع. صعب جداً أن يبقى هنا من هم ذوو ألقاب مختلفة، إلا من كانوا مثل **تسوي دا جياو** ذلك الطائش، من الذين لا يتعاملون مع الخزف، لذلك لا يتم إقصاؤهم. كان أكثر شخصين موهوبين في المصنع هما **لوه تشانغ جوي** و**لوه جيا جو**. ولكن لم يكن عندي شغف تجاه الآنية الرقيقة المزخرفة التي يصنعها **لوه جيا جو**.

كانت مهارة **لوه تشانغ جوي** الفريدة في تشكيل الخزف المزخرف وتزجيجه تسحرني. وخاصة، عندما يدخله إلى الفرن بشكل، فيخرج منه

بشكل مختلف تماماً، يكون من الصعب جداً توقع الألوان وكأنها تدخل أرضاً سحرية. فإن خروج أي ذوق أو مساحة للخيال أو إحساس، أمر محتمل. كان أحياناً يرسم سمكة، وبعض النباتات الطافية، ثم بعد أن تخرج من الفرن ذي درجة الحرارة العالية للغاية، تطمس السمكة، وتتحول إلى طيف مركب، ويتغير شكل النباتات الطافية، لتصير نُدف ثلج كبيرة وكثيفة. فأنا لم يسبق لي أن رأيت حتى في الرسم الصيني القديم مثل هذه الدرجة العالية من الغموض!

راودتني رغبة في تعلم الفن من **لوه تشانغ جوي**، ولم أتمنَ أن أقوم بالرسم بالأزرق يومياً على حافة الزُبديّات في ورشة الزخارف، كنت أخشى أن لا يرحب **لوه جيا جو** بذلك، ولكن لم أتوقع أنه فعل عكس ما ظننت. فقد وافق مبتسماً. جاء موعد ورشة **لوه تشانغ جوي**، الذي ترك في قلبي هيبة منذ اليوم الأول. طلب مني أن أحمل زهرية ضخمة شُكّلت لتوّها، وأضعها جانباً. ومن أجل إظهار نيّتي المخلصة للمعلّم، قمتُ بحملها بكل قوتي، فانبعج الإناء الكبير مثل قشر بيضة ضخمة وهشة، وانفرش على الطاولة. أما أنا فقد فقدت توازني وسقطت عليها، فلُطّخ جسدي كلّه بالطين. رجّت أصوات القهقهات أرجاء الورشة كلها، كان حقاً موقفاً محرجاً! وبهدوء شديد قام العجوز بلملمة الطين بسرعة من على الطاولة، ثم التفت وقام بسحب زهرية كبيرة كانت في نفس حجم وشكل تلك التي أسقطتُها. وبعد ذلك أمسكها من الناحيتين، ثم فجأة حمل تلك الزهرية الطينية الضخمة الأشبه بأسطورة، والتي تزن بضعة عشرات من الكيلوغرامات، ومشى خطوتين ثم وضعها إلى جواري، ومضى دون أن يتفوه بكلمة. وهكذا تركني أقف كالأبله إلى جوار

تلك الزهرية الطينية.

توجست منه. وخِفت من أنه قد لا يفهم في الرسم الزيتيّ، فيستخفّ بي ويحتقرني بعدها. فعرضتُ عليه نسخاً مقلّدة من لوحات لزهور وطيور وجبال وأنهار من عصر سونغ ويوان، كنتُ قد رسمتُها في محاضرات التصوير الصيني التقليدي أيام الكلية. ولكن الغريب، أنه أخذ يتأمل التصوير الزيتي ذا الخطوط الكبيرة والألوان الأنيقة والبارزة والغنية. وصار يُمعن النظر في اللوحات، حتى ارتسمت على وجهه ملامح أقرب إلى ملامح التخمين، وظلّ يتأملها إلى أن انفرجت أساريره تدريجياً. وفجأة ضرب مرتين على قماش الرسم. وكان في كلّ مرة يُخرج فيها زجاجة جميلة من الفرن، يضرب عليها.بنفس الشكل من الرضا.

في تلك اللحظة نظرتُ، فوجدت أن ذلك الكلب قد اختفى من عند الباب، وعندما عاودت النظر، وجدتُ أنه لم يمضِ بعدُ، لمحته يقف هناك عند الباب، لكن جسده متوارٍ خلف الجدار، وما كان يظهر منه هو نصف وجهه فقط، وهو يجول ببصره بوجل إلى داخل الغرفة. كان أشبه بطفل! هذا المنظر أثار بداخلي شعوراً بالشفقة، وكذلك بالحنوّ والدفء. ولكن عندما ناديته لم يدخل، فهممتُ بالذهاب لأدخله.

لكن **لوه تشانغ جوي** منعني قائلاً: «إنه يتجول في الخارج طوال اليوم، وجسده متّسخٌ للغاية». قطّب جبينه وقال: «الغريب، أنه لا يقترب من البشر. ولكن على الأرجح أن رائحة ألوان الزيت الموجودة عندك هنا تذكّره برائحة بيت عامل الطلاء...».

الشيء الذي يستدعي التأمّل، أنه منذ ذلك اليوم، صار **فاحم** يأتي بانتظام.

لم أنجح في تخمين سبب مجيئه إلي، وخاصة في أيام العطلات الرسمية، والمدهش أنه كان يستطيع تمييز الأيام! ذات يوم، بينما كنت منهمكاً في عمل داخل غرفتي، التفتُّ ففوجئت به يطلّ بنصف رأسه من الباب، كان من الواضح أنه يريد الاقتراب مني. ولكنه لم يكن يخطو إلى الداخل مهما ناديته، أو أمسكت بطعام لكي أجذبه به. وكلما كنت أصرّ عليه لكي يدخل، كلما تراجع مُعرِضاً عن الدخول. ولم يدخل سوى ظلّه الكحلي بفعل نور الشمس. شعرت أنه لم تنشأ ثقة بيننا بعد. فهناك مقوله تقول: «التعساء لا يثقون بالآخرين بسهولة»، هل يعقل أن هذا الكلب مثلهم أيضاً؟

فكّرت في حيلة؛ وهي أنني سأنتظره عندما يأتي، وسأحيّيه برأسي فقط، كما أرحب بصديق قديم، وبعد ذلك أنصّب حامل اللوحات للرسم، وأتجاهل وجوده كلياً، وأتجنب إثارة شكوكه. ذات مرة، استمريت في الرسم لمدة ساعة متواصلة، دون أن أتحرك أو التفت إليه، ولكنني كنت متأكداً أنه كان يقف عند الباب. استمريت في الرسم، حتى مرت ساعتان ونصف الساعة، وبعدها لمحت بطرف عيني طيفه الرقيق يدنو مني رويداً رويداً. خفق قلبي وتسارعت دقّاته بعنف، لدرجة أنني خشيت أن تفلت ريشة الرسم من يدي وتُفزعه، فيفرّ هارباً. شعرت بشيء مشعر وثقيل يستند إلى ساقي. يا إلهي، نحن نتلامس. أخذت أرسم مستمدّاً طاقتي من الحماسة القوية التي تملّكت قلبي لحظتها، بقيتُ أرسم وأرسم وأرسم، حتى ارتحلَت الشمس من أمام الباب. شعرتُ بالتعب، فأنا لم أتعب من الرسم بهذا الشكل من قبل. أخفضت رأسي لأراه، فوجدته يخلد إلى نوم عذب بالقرب من قدمي. بالطبع كانت هذه العذوبة هي حال قلبي أيضاً حينذاك.

بدءاً من تلك اللحظة، صار لي رفيق.

إنه في النهاية ليس كلب بيت. لن يرضى بالبقاء عندي هنا بشكل دائم؛ كان أحياناً يغيب لعشرة أيام أو لأسبوعين، دون أن أعرف إلى أين ذهب، وماذا كان يفعل. ولكنه في كلّ مرة كان يعود، عندما يبلغ شوقه إلى منتهاه. لا تعتقد أنني أقول هذا الكلام لأنني عاطفي، ولكنه كان في كلّ مرة يعود فيها يحكّ رأسه بحميمية في ساقي، ويعض حافة سروالي، ويلعق يدي. وفي الصباح يلعب معي، وفي المساء ينام عند قدمي. وعندما يسمع صوتاً في الخارج، يتنبّه ويخرج متجولاً ليتفقد الأمر، أو يبقى في الخارج طوال الليل كحارس على بابي. كان **فاحم** كلباً شديد الذكاء، وسريع التعلم.

علّمته أن يفتح الباب، وبعد بضع مرات فقط، تمكن من الضغط على مقبض الباب بنفسه، وصار يخرج ويدخل بسلاسة. عندما كنت أطلب منه أن يرفع «يده اليسرى»، كان يرفعها ويسلّم علي، عندما كنت أقول له أن يرفع «يده اليمنى»، يفعل كما طلبت. لم يكن يبحث عني بهدف الأكل. بالطبع كان بمجرد أن تتوفر في المطعم أضلاع، أو أقدام خنزير مقلية، أو حتى قطع لحم الخنزير بالصوص، كنت أشتريها وأعطي له منها. لم يكن يبحث بهدف الأكل، قطعاً لم يكن هذا هو السبب! كنت أملّس على رأسه وأسأله:

«لماذا تأتي إليّ دائماً؟».

فكان ينظر إليّ بذعر، دون أن يحرّك ساكناً. وكأنه يقول لي، يجب أن تكون قد عرفت الإجابة وحدك.

الفصل الثالث

أراد القدر أن يسوق لي رفيقاً أكثر دفئاً، وكذلك قرباً إلى قلبي. وفور ظهور هذا الرفيق، تراجعت مكانة **فاحم**. كان اسمها **جون جون**. دون تمهيد نبت الحب في قلبينا، وفجأة تزوجنا، حدثت الأمور بسرعة البرق، وتماماً كالبرق فقد أنارت الدنيا كلها، بل وحتى أكثر السحب غلظة وكآبة.

ذلك اليوم عند الغسق، جاء **لوه جيا جو** على غير المتوقع وبصحبته فتاة. قال إنها مُدرّسة رسم للمدرسة الإعدادية الرئيسية في مركز المحافظة، وإنها جاءت لرؤيتي؛ لأنه قد ذاع صيتي.

كان الانطباع الأول الذي تركَته في نفسي؛ أنها أشبه بلون دافئ ومبهم. كان هذا الشعور غاية في الروعة. فإنني رأيت كلّاً من قدميها الممشوقتين الناعمتين، وذقنها الممتلئ المدبّب، وجبهتها العريضة والمنتفخة. ولكن أكثر شعور عذب منحَته لي، هو أنه لم يكن لجسدها خطّ محدّد، وكانت صورتها الجانبية ضبابية، يصعب أن أميزها عن الخلفية؛ وكأنّ بوسعها أن تذوب في أية خلفية وتندمج في داخلها. حتى الألوان، بل والإضاءة والهواء، بدت وكأنها تتغيّر وفقاً لها، فتتحوّل إلى لوحة فنّانة...

أتذكر ذلك اليوم الذي كنتُ فيه غاية في الارتباك وأنا أُطلعُها على لوحاتي، قلتُ كلاماً كثيراً، لدرجة أنني لا أذكر منه حتى جملة واحدة. كنت أشعر حينها وكأن فمي صغيرٌ جداً، لا يتّسع للعديد من الأفكار التي تريد أن تخرج منه، فبقيَت حبيسة هناك؛ كانت تلك الأفكار أشبه بالنحل الذي يئِزّ دائراً في خليته. هي أيضاً لم تقُل أي شيء تقريباً. في عينيها ذواتي الأهداب الطويلة،

مع بريق متدفّق وصافٍ لذوبان الجليد في الربيع. كانت رموشها طويلة وناعمة ومبعثرة، وكثيفة للغاية. بعد أن مضت، مزجتُ اللون الأحمر الناري مع البرتقالي والأصفر الترابي واللازوردي، وكوّنتُ لوناً فريداً من نوعه، ثم بدأتُ في طلاء الجدران الرمادية لغرفتي. في الواقع كان هذا اللون الفريد هو **جون جون**، وقد ذاب مثل الحلم على الجدران، بقيتُ أتأمّله طوال الليل.

رغم أن **لوه جيا جو** كان يجلس بجوارنا في ذلك اليوم، إلا أنني نسيت وجوده تماماً. في ما بعد، باتت **جون جون** تأتي بمفردها، من غير **لوه جيا جو**، وتجلب معها لوحاتها لتطلعني عليها. قالت إنها قضت طفولتها في **تشينغ داو**((6))، تؤفّي والدها وتركها هي ووالدتها، ولكن بعد موت والدتها، لم يبقَ لها أقارب هناك، فانتقلت لتعيش مع عمّتها هنا. وزغم أنها درست لمدة عامين في كلية **تشينغ داو** للفنون والحِرف، إلا أنني كان يتعذّر علي أن أرى من خلال لوحاتها أنها ترسم بشكل متخصّص، لم تكن لديها مهارات أساسية، حتى أن التكوين في لوحاتها كان يُوحي بأنها فتاة ترسم وتلوّن بشكل عشوائي. لكنها كانت تملك إحساساً عالياً. فعندما تقوم بشرح المعنى الخفيّ في داخل اللوحة البسيطة، والتي قد تبدو طفولية، تتبدّل اللوحة لتصير رائعة، بل ومذهلة. كانت لديها جينات فنية.

كان أكثر شيء أمقته هو النقاش مع من يمتلكون المهارات غير أنهم يفتقرون إلى الحسّ الفني، ففيما تُتعب فمك بالحديث معهم، يحملقون بك وكأنك تقول كلاماً غبياً، ولكن مع **جون جون** يمكنك أن تُفصح ببساطة عمّا يجول بقلبك، بغض النظر عن مدى عمقه وتعقيده، أو حتى مدى صعوبة شرحه، فهي سوف تفهمك تمام الفهم في كلّ الأحوال.

في ما بعد عرفت أنها مثل سائر الفتيات الحالمات الأخريات، مولعة بالشعر، وتعشق الأدب، وخاصة روايات **إيفان تورغينيف**. كانت أحياناً تشعر وكأنها مثل **ليزا**، وأحيانا مثل **آسيا**. ألن يكون مثيراً للضحك لو أنّك تجولت في شوارع مركز المحافظة بهذا الإحساس بالذات؟ كانت طباعها وملامح شخصيتها هذه قد تشكّلت بين طيور النوارس والقصور في **تشينغ داو** الساحرة التي تُشبه أحاسيس الشعر وخيال الرسم، ووسط عائلتها السابقة من المهندسين.

إنها ببساطة معجزة، أن يجمعني القدر بهذه الفتاة في مركز المحافظة الصغير النائي هذا، والذي يشبه علبة مغلقة!

شعرتُ أن القدر قد رتّب مجيئها ووجودي هنا، لتتقاطع دروبنا، فلنتقي.

عندما كنت أقوم بتصحيح اللوحات لها، كانت تجلب مقعداً خشبياً قصيراً وتجلس إلى جواري، وتنتقل نظراتها تدريجياً من اللوحة إلى وجهي، كانت هاتان العينان طويلتا الأهداب تشردان ناظرتين إليّ، بل وأيضاً تنبهران، وتقدران، وتتحمّسان، وتحتاران، وكأنهما تغمضان لتسبَحا في حلم...

في فترة وجيزة، تقريباً بعد خمس أو ست مرات، تعارفنا جيداً، فظهر جزء فتان خلّاب من شخصيتها. كانت تُغنّي لي، وكذلك تُلقي الشِعر وترقص، كنت أجلس وأشاهدها، كانت كطفل تغمره السعادة، تغنّي وتتراقص ببراءة وفرح. صار قلبي مثل مروج ربيعية منبسطة، كُسيت كلها فجأة باللون الأخضر. كانت تحبّ أن تخلق أجواءً كتلك الموجودة في الروايات، لتُحرّك مشاعرها وتجذبني معها إلى هناك، كي نختلق أجواءً مماثلة نستمتع معاً بها. كانت تحبّ الاستناد إلى كتفي، وتُتمتم محدّثة نفسها ببعض الخيالات الغنيّة بالفن.

كانت تحب ارتداء كنزة جديدة الصنع مطرّزة بالورود، وتستغل عدم وجودي بالغرفة فتدخل للتجوال داخلها، وتبحث عن زاوية يتسلل إليها ضوءٌ ضبابيّ لتقف فيها. وكنت عندما أدخل من الباب، أُفاجأ بوجودها مثلما أُفاجأ بلوحة فنية. إن الفنّ أكثر جمالاً من الحياة. ولكن لو كانت الحياة جميلة كالفن، فما كنت سأحتاج إلى الفن قطعاً! ولكنها جعلتني أشعر مجدّداً بسحر الحياة. تلونت الدنيا في عينيّ، وصارت كلّ الأشياء من حولي مركّزة الألوان، تتدفّق بحيوية على لوحة ألواني. ردّت الحياة في فرشتي ثانية. فتدفّق سيلٌ جارف أعمى من الحماسة، دفعني للقفز من سريري في منتصف الليل ونصب حامل الرسم. كان كلّ هذا يأتي بشكل عنيف جداً؛ فحتى لو كنت أفتقر إلى ما يحتاج إليه الفن من أحاسيس ودوافع، كنت أحمل الفرشاة دون أن أعرف ماذا سأرسم.

ذات مساء، بقيت **جون جون** عندي لوقتٍ متأخّر جداً، ثمّ هطل المطر بغزارة، فقلت لها:

«سأرافقك للعودة».

حملقَت بي قائلة: «هل تطردني؟». كانت نظراتها صاعقة، فبمجرّد أن لامست عيناي عينيها، حتّى هربتُ منهما فوراً. عينان متوهجتان لا يجرؤ حتى أعظم الفنانين على رسمهما.

«لماذا لا تتطلّع إلي؟»، كان صوتها خافتاً، وكذلك مرتجفاً بقوة. وكأنها تخاف شيئاً ما، ولكنها في نفس الوقت تصرّ على مجابهة كلّ ما يخيفها.

«الوقت تأخر جداً، أخشى أن يتكلم عنكِ الناس...».

أمسكَت بمعصمي بغتة، وفتحَت الباب بقوة وقادتني إلى الفناء. ثم صاحت وسط صوت المطر الصاخب: «فليأتوا ليشاهدوا إذن! سنفعل ما يحلو لنا». ثم رفعت رأسها، وبكل قوة ألصقت شفتيها الساخنتين اللتين ترتجفان على شفتيّ. كان المطر ينساب على شفاهنا التي تتبادل القُبل برفق. أما زخات المطر الباردة، فكانت تحاصر قبلاتنا الملتهبة، كان هذا الشعور حقاً غريباً ومُثقداً!

سحبتُها إلى الغرفة بالقوّة. كان جسدُها قد غمرته المياه، وكانت خصلات شعرها المبللة ملتصقة على جبهتها الندية، أما نظرتها فكانت متوهّجة كالسابق وهي تحدّق بي، فهي لم تدخل الغرفة طواعية! لم أعُد قادراً على مقاومة الهجوم المبادر والمجنون والشجاع لهذه المرأة الشابة، والتي أثارت رغبة كامنة بداخل خلاياي وشرايين جسدي بأكملها، ففقدتُ السيطرة على نفسي، وتضاعفَت شجاعتي مئة مرة. عانقتها دافعاً بها إلى السرير، أما هي فقد غطّت وجهها بيديها الصغيرتين الناعمتين. ثم منحتني كلّ شيء...

لستُ رجلاً ماجناً أبداً. ففي الكُلّية، كنت منضبطاً وحسِن السلوك بدرجة ساذجة وخرقاء، وعندما أكون بصحبة زميلتي المقربة التي أعرفها جيداً، فإن أقصى ما كنت أفعله هو أن أرفع وجهي بخفّة، ثم أشيح به عنها فوراً، وكأنني قد صعقتني الكهرباء. لا أدري لماذا «اجتزت الحدود كلها» فجأة وبدون مقدّمات.

في اليوم التالي، بدأنا في إجراءات الزواج. ظاهرياً كان يبدو أنه لم يعترض أحد، أما في واقع الأمر فقد كانت الإجراءات معقّدة جداً ؛ ليس لأنني لم أجد شخصاً يكتب قسيمة الزواج، بل لأن الختم الرسمي كان مغلقاً

عليه في الدرج ولم يُتَح إخراجه. لم تأت **جون جون** لثلاثة أيام متصلة. غابت في اليوم الأول، وانتظرتها، ولم تأتِ في اليوم التالي، فانتابني قلق، أما في اليوم الثالث، فقد قرّرت الذهاب للبحث عنها. تطوّرت علاقتنا بسرعة خاطفة، فلم أكن قد تعرّفتُ بعد على عمّتها وزوجها. سمعتُ أن زوج عمّتها يبيع أدوات مكتبية في جمعية تعاونية، وأنه شخص عنيد للغاية. يا ترى هل قابلَتها مشكلة ِما؟ هل الفارق في السنّ بيننا كبير بعض الشيء؟

جاءت مساءً. كانت تتكلّم وتضحك كعادتها، ولكنها لم تذكُر شيئاً عن إجراءات الزواج. شعرتُ أن سعادتها كانت مفتعلة نوعاً ما، كان بأجفانها احمرار طفيف. سألتها عمّا حدث، فظلّلت غيمة من الهموم وجهها الحسن، وقالت:

«سأسألك سؤالاً واحداً، هل اقترفتَ خطأ ما؟».

«لا، قطعاً لا! ما الأمر؟». شعرتُ أن هذا الكلام لم يفلح في أن يبسط تقطيبة جبينها، فسألتها: « ألا تصدقين كلامي؟».

أسندت رأسها على كتفي، وقالت:

«سامحني، لم ينبغِ عليّ أن أسالك مثل هذا السؤال. أنا أثق في أنكَ شخصٌ طيب، لا يمكنني أن أتركك».

استغربت لما قالته، فلِمَ تقول مثل هذا الكلام؟

أصبت حينذاك بالحيرة. فأنا الذي يسهل عليه الربط بين إي إحساسين فنّيين مجرّدين؛ أعجز عن ربط ما قالته هي بسؤال **تسوي دا جياو**.

هذا ما حدث؛ تكرّر غيابها، ولكن هذه المرة لعشرة أيام متواصلة. وفي

غيابها شعرت وكأن اليوم الواحد به ثمانون ساعة. كان الوقت يطول بمرور الأيام، حتى تملّكني حدسٌ بأنها تركتني. فصار العالم من حولي وكأنه خاوٍ من الأشياء.

في اليوم الحادي عشر، سمعتُ صوتها منبعثاً من خارج النافذة، رأيتها تقفُ في منتصف الإطار، على تلكم الأرض العشبية مترامية الأطراف، وتلوّح لي بيدها. كانت كنزتها زاهية الصُفرة، تلتمع تحت ضياء الشمس. ركضتُ إليها، فأشارت لي بإصبعها أن انظر بسرعة؛ على العشب الأخضر كانت أزهار الذرة متناثرة وقد قطفَتها تواً وفرشتها على الأرض في شكل مربع صغير، أشارت لي بيدها لأزيح هذه الأزهار جانباً، كانت تعبيراتها حيويّة، وفي نفس الوقت غامضة. أزحتُ بخفّة تلك الأزهار ذوات اللون الأصفر المائل إلى البرتقالي، ففوجئت بورقة كانت تحتها. ها! كانت أصلاً قد استخرجت «قسيمة الزواج» من المدرسة، ركعتُ على العشب ممسكاً بتلك القسيمة صعبة المنال، ذات الرائحة العطرة، والمطبوعة بآلة ناسخة، وصحتُ: «أخيراً»، وكأنني بتصرفي هذا نقلت الجنون الذي أصابني حينها إلى تلك الفتاة لطيفة الطباع، فجُنّت هي أيضاً. استلقت فوق العشب هي الأخرى، وقالت لي:

Telegram:@mbooks90

«لو متّ، فادفني بنفس هذه الطريقة. إن لون هذه الأزهار البرّية هو لوني، وعليك أن تغطّي بها قبري».

كمّمت فمها بيدي.

ولكنها أزاحت يدي، وقالت بجدية: «لا يوجد شيء بلا مقابل. بعد أن تدفنني، ستنتحر!». عندما قالت هذه الكلمة، انسابت دموعها بما لم استوضح له سبباً، وراحت تبكي إلى حدّ أنني فشلت في تهدئتها. بعد ذلك ابتسمَت

مُجدداً من تلقاء نفسها، وانتزعَت من يدي القسيمة وأخذت تدور حولي وهي تغني وترقص. كانت أشبه بحمل وديع. صاحت منفعلة: «ها إنّا قد انتصرنا!»، رأيت قطرات من الدموع عالقة بأهدابها الكثيفات الطوال، وكانت تماماً مثل ندي رقيق يعلو عشباً أخضر. «انتصرنا، ألن تحتفل بهذا النصر؟».

أومأت برأسي مبتسماً، ولكنني لم أكن أعرف على من كان هذا «الانتصار».

ذاع خبر زواجنا في معظم أرجاء مركز المحافظة. في هذه الأثناء، علمت أن **جون جون** ولكي تتزوجني كانت قد تشاجرت مع زوج عمتها وأحزنت قلب العمّة. لم يكن لعمتها أبناء، فكانت تعتبرها كابنة لها تماماً. لكن **جون جون** تنازلت عن كلّ ذلك، مما ضاعف من حبي لها. سمعتُ أن وازع رفض زوج عمتها لزواجنا كان متعلقاً **بلوه جيا جو**. ولكن لماذا؟ لو افترضتُ أن ذلك في البداية كان بسبب نشوب صدام خفي بيني وبين **لوه جيا جو** في ورشة الزخارف، ولكنني قد انضممت إلى مجموعة أخرى يرأسها **لوه تشانغ جوي**، ولم يكن هناك أي صدام بيننا. فجأة تذكرت أنه هو من أحضر **جون جون** في المرّة الأولى التي دخلت فيها إلى بيتي. هل يعقل أنهم... استوضحت رويداً رويداً عن السبب الخفي وراء ذلك.

سحبتُ البطانية على رأسينا أنا و**جون جون**، وقلت لها:

«لا يوجد سوانا الآن هنا، فحتى الطاولة والكراسي الموجودة في الغرفة، لن تسمع ما نقول. أخبريني، هل كان **لوه جيا جو** معجباً بكِ؟ صارحيني بالحقيقة، فقد أثم من كذب».

صمتَت، وكانت تنبعث من جسدها رائحة استثنائية، ناعمة ودافئة. لم تنكر

ذلك.

«هل أعجبتِ به؟». تابعتُ سائلاً. «قولي الحقيقة».

صمتَت لوهلة، لم تُجبني، ثم قالت: «أنا لا أحبّ سواك، أحبّك، من الآن وإلى الأبد...الأبد...».

قالت هذا بسرعة، ودون أن تمنحني فرصة لأتكلم، عانقتني بحرارة، ثم طبعت قبلة على شفتيّ بفمها الصغير، وثبتت على هذا الوضع طويلاً. كانت، رغم الظلام الدامس تحت البطانية، والذي لا يُرى فيه شيء، لا تقبّل وجنتي أو ذقني بالخطأ، بل عرفت طريقها إلى شفتيّ مباشرة. كانت كلّ أحاسيسها غاية في الروعة والدقة.

أعتقدُ أن هذا ما جرى: توترت علاقتي أنا ولوه جيا جو بشكل خفيّ غير مرئي. كان وجه لوه جيا جو ضاحكاً دائماً، لدرجة تصعب معها رؤية عينيه عندما يضحك، فلم أكن أعرف ما يضمره. وهو عندما كان يقابلني كان يقول بلهجة ساخرة: «عندما تتزوج، سآتي وأهلل أمام بيتك»((7)). هل هو كريم وواسع الصدر إلى هذا الحدّ؟ فأنا حقاً قد تأثرت نوعاً ما بكلامه.

أريد أن أفعل كلّ ما بوسعي لأن أقضّي أسعد يوم في عمري بفرح وسعادة. طلبت من لوه تشانغ جوي أن يسمح لي بصنع بضعة أطباق خزفية على ذوقي الخاص، فوافق على طلبي بوجه بشوش. وكانت موافقته بمثابة امتيازات استثنائية منحها لي؛ لأن الخزف داخل المصنع يُصنع وفقاً لقوانين محدّدة. وكانت مراقبتي الطويلة لطبيعة وخواص وتأثير التزجيج المزخرف، قد دفعتني لخوض تجربة الرسم على ثمانية صحون خزفية. استخدمتُ أولاً

طريقة التزيين التي تعتمد على تغيير الشكل، ورسمت قرداً يركب على ظهر بقرة. إذ أن برج **جون جون** هو القرد((8))، أما برجي فهو البقرة. أردت أن أمازح **جون جون** بهذه الرسمة، وأخبرها كم أنها مشاغبة معي. أما الأطباق السبعة البقية، فقمتُ بخلط بضع طلاءات زجاجية معاً، واستخدمت فرع بامبو لرسم بعض التصميمات أو الرسوم التجريدية التي اعتمدتُ فيها على إحساسي. وبتحريكي للألوان على طبق منها، تشكّلَت رسمةُ دوّامة. ولكنني لم أجعل مركز الدوامة في منتصف الطبق؛ لأنها قد تمنح شعوراً بعدم الاستقرار. عندما وضعت هذه الأطباق في الفرن، عجزت عن تخمين الأشكال التي ستخرج بها.

أنتَ تعلم أن أفران الخزف هي بمثابة صندوق سحري ضخم، يتشكّل بداخله الخزف من جديد. تكون درجة حرارة الأفران مئة درجة بل وتجتاز الألف، يبقى الخزف بداخلها، يُحرق لساعات بل وحتى لأيام.

وعندما تُفتَح الأفران لإخراج الخزف، فيا للهول! لأن ثمّة احتمالات لخروج نجاح باهر، أو فشل مؤلم، وتحف فريدة، أو مجموعة من النفايات لا تصلح لشيء! كما أن هناك مشاعر متباينة أيضاً تكون في انتظارك: صراخ، أو فرحة جامحة، أو حتى دموع! فكل قطعة خزف تساوي قدَراً، ومن له أن يعرف أقدار الآخرين. إنّك مهما كنت بارعاً فالنتائج كلها متروكة للقدَر. كان عمال الأفران قديماً يُشعلون البخور ويصلّون لبوذا يوم فتح الأفران.

انتهيت من حرق الأطباق الثمانية يوم زفافي. قال الجميع إن الفرح غمرها أيضاً. أصابني الذهول أول ما فتحت الساجار((9)) المُستعر، أما زالت هذه المعجزات موجودة على وجه البسيطة! إن الفرن الضخم المصنوع من

الطابوق الأحمر، هو أكثر مراكز الفنون إبداعاً في العالم، فإنك لو وضعت ثمرة كمثرى في داخله، فسوف يصقلها ويعيدها إليك قطعة فنية في منتهى الرُقيّ!

قمتُ بتزجيج الطبق الذي رسمتُ عليه «البقرة والقرد» بطبقة سميكة من الطلاء الزجاجي الشفّاف، فصار أملسَ وبراقاً. وتحول لون القرد الأبيض الذي كان في مخيلتي في البداية، إلى الأصفر الذهبي، تماماً مثل كنزة **جون جون** فاقعة الصُفرة، تمدّدَت ألوان الطلاء الزجاجي في كلّ الاتجاهات، لتعطي شعوراً بأن شعر القرد طبيعي ناعم وقصير، كان قرداً رائعاً بشعر ذهبي اللون! أما البقرة الكبيرة التي قرّرتُ أن أجعل لونها أصفر داكناً، ففوجئت بأنه قد صار أحمر بعد أن خرجت من الفرن. وبسبب أن نسب الأوكسجين كانت متفاوتة وغير متساوية، فقد ظهرت على قعر الصحن الأبيض نقط سودٌ، كانت أشكالها وأماكنها مناسبة تماماً. ولو أني بذلت كلّ ما في وسعي لأن أرسم مثلها، لما استطعت بالمطلق. لكم كانت البقرة الحمراء جميلة! أما الطلاء الزجاجي لقاعدة الصحن فقد صار لونه أزرقَ هادئاً وعميقاً بعدما حُرق، فأبرَز بشكل برّاق كلّاً من القرد والبقرة. وخاصة إكليل الزهور الذي يُلبِسه القرد الذهبي للبقرة الحمراء، كان لونه تماماً مثل لون الزهور الطبيعية... فاتحاً، ناعماً ورقيقاً. كيف لي أن أتوقع مثل هذه النتيجة الفنية الفريدة. أما الأطباق السبع الباقية، فقد كانت رائعة إلى حدّ يدفع المرء للتهليل من فرط الإعجاب بها. وخاصة ذلك الطبق الذي رُسمت عليه دوامة، فقد تحولت ألوان الطلاء الزجاجي إلى مئات الألوان، فشكّلت دوامة كبيرة وملونة عندما تتأملها، تشعر وكأن قدميك قد وطئتا مكاناً بعيداً في العالم،

رائعاً وعميقاً ومهيباً. إنني لعاجز عن وصف ذلك العالم الذي لم أرَ مثله قطّ. ببساطة... لقد أفقدني هذا الجمال عقلي!

قلتُ في قرارة نفسي: **خوا شيا يو! خوا شيا يو!** ألم تكن دائب البحث عن عمل غنيّ بالطاقة يطلق العنان لكل إبداعك؟ ولطالما سيطرَت عليك فكرة أن تلك الأماكن الممتلئة بنتائج فنية وليدة الصدفة، وحدها ما بوسعها أن تحرّر الفن من أصفاد القوانين الذهبية؟ ألم تؤمن بأن الإبداع الفنّي الفريد وحده يمكنه أن يهزم أولئك الأساتذة الكبار ذوي الأسماء اللامعة في التاريخ؟ ألم يترسّخ في اعتقادك أن أدوات الرسم هي أكبر قيد للرسم ذاته؟ ألم تحلّل اليوم كلّ هذا، وبدون أدنى توقع؟

لقد اكتشفتُ عالماً. عالماً بلا حدود.

«عالمٌ بأكمله ظهر أمامنا، ينتظرنا أن ندخله لنُبدع، لا لننسخ أو نُكرّر». جالت مقولة **بيكاسو** هذه في خاطري. وبقيتُ واقفاً أمام هذه الأطباق، عاجزاً عن الكلام لنصف ساعة كاملة.

جاء **لوه تشانغ جوي**، وحدّق مشدوهاً أول ما وقعت عيناه عليها. لم يتكلم، وكأنه فقد النطق، ثم حمل الطبق ذا الدوامة الملونة، وبعدها ولّى ظهره ومضى. جاء في المساء لحضور حفل زفافي، كان قد أبدل ملابسه بأخرى نظيفة، وكان يحمل بيده حقيبة قماشية قام بفتحها وأخذ يُزيل طبقات من ورق ليفيّ قديم، ثم أعطاني قطعة من الخزف، وكانت حاوية لغسيل المفارش على شكل ورقة لوتس بيضاء نقية. سحرتني بمجرد أن رأيتُها. كانت ورقة اللوتس متموّجة، مرتفعة إلى أعلى ومثنية إلى أسفل، وكأنها في لحظة تماوج، كان شعوراً حيوياً لأبعد مدى، وكأنّ رياحاً تتلاعب بها.

كانت عليها بعض التعريقات الأنيقة، صنعت بطلاء أبيض وقد زُجّجت بشكل ممتاز، فبدت وكأنها من حجر اليشم. أول ما قلبتها، رأيت في قعرها المستدير حبيبات خشنة، وكذلك بعض النتوءات. كانت متناسقة الشمك، وكذلك خشنة وأنيقة، تجمع بين الحيوية والسكون، وفريدة لدرجة يصعب أن يُرى مثلها حتى في المتاحف. كانت هذه واحدة من التحف الفنية التي صنعها **لوه تشانغ جوي** منذ أكثر من نصف عمره.

كان يتتبع نظراتي بعينيه، تقريباً ليرى إن كان بوسعي تمييز الأعمال الجيدة عن الرديئة.

بات على الطاولة عددٌ كبير من المصنوعات الخزفية، ففي المناسبات السعيدة هنا، تكون معظم الهدايا عبارة عن خزف. كان من بين المتعلقات الهامة **لجون جون** التي أحضرتها من بيتها زهريتان مزخرفتان بالأزرق والأبيض، ورثتهما عن أجدادها.

وضعتْ حاوية غسيل المفارش التي صنعها **لوه تشانغ جوي** على الطاولة، فبرزت. بينما انطفأ كلّ الخزف الموجود حولها، كانت تشعّ سحراً وتمنح مساحة للخيال. كانت حقّاً مُبهرة، ولا مثيل لها!

عندما قرأ **لوه تشانغ جوي** الحماسة التي بانت على وجهي قال: «هذه هديتي لك، فلتحتفظ بها». وبدت عليه السعادة الغامرة في تلك الليلة.

كان أغلب العمال في المصنع يعاملونني بطيبة، فقد أفرغوا لي الغرفة الداخلية من الأنقاض. أما أنا -ورغم الجدار المتصدّع- فقد قمت بتعليق لوحات لمناظر طبيعية، وأزهار، وطبيعة صامتة على الجدران الأربعة... صار

بيتي الجديد يضمّ في داخله الكون بأسره.

لم يأت **لوه** أمين سرّ لجنة الحزب، قال إنه سيذهب إلى مركز المحافظة لحضور اجتماع، وربما كانت حجّة للاعتذار عن الحضور. أما **جون جون** فذهبَت لدعوة عمّتها وزوج عمّتها مراراً، ولكنهما لم يلبيا دعوتها. جاء **لوه جيا جو** بصحبة فتاة جميلة؛ كانت الابنة الثانية **لتساو جيا شي** مدير مكتب لجنة الحزب في المحافظة، وكان يظهر على **لوه جيا جو** الزهو وأن معنوياته مرتفعة للغاية. بدا للجميع أنهما منسجمان معاً، يتعاملان على رسلهما. لكن، **لوه جيا جو** ارتبك حينما عرضت **جون جون** على الحضور الأطباق المرسومة بحماسة وفرح. وخاصة عندما تجرأ **تسوي دا جياو** بفعل تأثير الخمر، وقال: «هاي! لم نرَ في منطقة الخزف كلها مثل هذه القطع الفريدة». ختم **لوه تشانغ جوي** على فيه، ولكنه في الوقت نفسه كان بادي السرور. أما **لوه جيا جو**، فبدا وقد دُهِن وجهه بالصمغ، جامداً مشدوداً خالياً من التعابير، يشيح بوجه عن الأطباق متعمّداً، ويتظاهر بعدم اهتمامه بالأمر. ولكن عندما مازح الجميعُ **جون جون** متجاهلين له، لم يُطِق ذلك، لدرجة أن نظرة فلتت منه فحدجت تلك الأطباق. أما أنا فكنت في غاية الانزعاج من توتّر علاقتنا، لذلك كنت متيقظاً منه. فعندما أتى كان يحمل لفة منتفخة، مما يعني أنه سيهدي إليّ قطعة من الخزف، ولكنه لم يُخرجها، وعاد بها كما أتى. وكان قد ظلّ عابس الوجه طوال الوقت إلى أن غادر، ولا ريب أنه غادر وثمة وخزة في قلبه.

إنّ من أكثر الأمور صعوبة وتعقيداً، هو عدم رضا الآخرين بقدرتك على الصبر.

في ذلك اليوم كدت ألامس السماء من شدّة سعادتي، ولم يقوَ أي ظلّ على حجب نور قلبي. لقد فزت **بجون جون** وكذلك بالأطباق المرسومة، وكلاهما مثل لوحة رسم قماشية كبيرة لا حدود لسِعتها. أطلقت العنان لكل ما يزيّن قلبي من أشياء بديعة لأرسمها عليها. يا إلهي، بِمَ فزت ثرى؟ ألم أفُز بالحياة والعالم بأسره؟ أجزم أنني كنتُ في تلك الليلة أسعد رجل على وجه هذه الأرض.

هناك سائق لطالما قال لي، إن قيادة العربة في الطرقات أمرٌ في غاية الغرابة. فإنك إن قابلت إشارة حمراء، فستليها سلسلة من الإشارات الحمر، ولا يمكنك أن تسرع إن أردت ذلك. وهذا ليس سوى حظّاً تعيساً. لكن في بعض الأوقات الأخرى، تكون الإشارات خضراً في كلّ مكان، ولا يُعيقك شيء عن الانطلاق، وتُفتح أمام وجتهك كلّ الاتجاهات. أنا الآن، كلّ الإشارات التي أصادفها في طريق حياتي هي خضرٌ.

انتهى ذلك اليوم متأخّراً للغاية، لكن بعد أن ودّعنا الضيوف، وكانت **جون جون** على وشك إغلاق المزلاج، اهتزّ الباب فجأة، وفُتح جزء صغير منه، ثم اندفع إلى الداخل شيء أسود فاحم. فزعت **جون جون**، وارتمت في حضني.

نظرتُ، فوجدت أنه **فاحم** وقد دخل، هل سارع في المجيء ليهنئني بزواجي؟ طمأنتُ **جون جون**، وقلت لها إن هذا صديق لي، وإننا تعارفنا منذ وقت، ثم تابعتُ قائلاً:

«كان يأتي ليرافقني في أكثر الأوقات التي كنت فيها أشعر بالوحدة. والآن أنتِ موجودة، رغم أنكِ ستملئين حياتي كلها، إلا أنني لا يمكنني التخلّي عن صديقي القديم!».

لاطفَتني. وطوّقت رقبتي بذراعيها الناعمتين، ثم قالت:

«أريدك وحدك. أنا لا أهتمّ بأي شيء آخر!».

فقلت **لفاحم**:

«ما رأيك، أسمعت؟ أليست زوجتي غاية في اللطف؟ في الماضي كان هذا البيت لنا نحنِ الاثنين، ولكن من الآن فصاعداً سيكون بيتنا نحن الثلاثة. أنا وهي سنسكنُ الغرفة الداخلية، وأنتَ ستبقى في الغرفة الخارجية، اتفقنا؟».

عندما دخل **فاحم** كان متوجّساً بعض الشيء من **جون جون**. ويبدو أنه سمع كلامي، وحتى من دون أن يفهم ما قلت فقد ظلّ ينظر إلي، ثم مضى وأخذ يتشمّم **جون جون** بأنفه الأسود الداكن، ويهزّ بذيله وهو في منتهى السعادة. من الواضح أنه وافق على تنفيذ ما قلته له. فرشتُ له في زاوية الغرفة الخارجية سجادة قديمة كنت قد استخدمتها لأغراض الرسم. وفوراً أخذ يخربشها بأظافره، ثم نام عليها باستسلام وهدوء. ومنذ ذلك الحين، أصبح ينام في الغرفة الخارجية بمجرد أن يأتي. لم أغير معاملتي له عمّا كان الماضي. كنت أرسم في أيام العطلات، بينما **جون جون** تقوم ببعض الأعمال المنزلية؛ وكان **فاحم** يُعينها؛ يحضر لها بفمه المكنسة، أو مضرب الذباب أو البرّاد الحديدي أو غطاء الموقد. يا لها من حياة مُرضية للغاية! ولكن من حين إلى آخر، كان يقبض قلبي قلقٌ مُبهم. لا أدري إذا ما كان جميع السعداء يراودهم مثل ذلك القلق غير معروف السبب، أم أنه حقاً حدسٌ بأن أمراً تعيساً في طريقه للحدوث.

Telegram:@mbooks90

أنتَ كاتب. وبلا شك أن لكَ رأياً سديداً وفهماً عميقاً لما يُسمّى بالحدس. قد

تفسره بشكل خاص بكَ، ولكن عليكَ الاعتراف أنه على الدوام فعّال ومؤثّر.

الفصل الرابع

لطالما كانت الصبغة السياسة لمركز المحافظة ذات لون باهت. وكان ثمّة عدد غير قليل من السكّان لا يعرفون الأسماء الصريحة لأعضاء اللجنة المركزية للحزب. ولكن ما يعرفونه تمام المعرفة هو أن بكين تقع «إلى الجنوب»، وأن انطباعاتهم عن العاصمة لا تتعدى ما في طابع البريد الدارج ذي الثمانية قَروش، والذي يحمل بالعادة رسمة لميدان «تيان آن من» والعمود الذي يلتفّ عليه تنّين.

في عام 1966((10))، وتحديداً في شهر يوليو، ضجّت الشوارع الكبرى بُغتة بقرع الطبول، فظنّ الناس أن هناك طارئاً ما، وعندما هُرعوا ليستعلموا عمّا حدث، سمعوا عن إعلان «الستة عشر بنداً»((11)). كان عددٌ قليل من الناس يعرفون أسباب وتداعيات «الستة عشر بنداً»، قال الطبّالون إن على الجميع أن ينتظموا في مواكب. جاب الجميع أنحاء المدينة في صخب وضجيج. عُقد عقِب ذلك اجتماع في المصنع وكُتبت شعارات كبيرة على الجدران، في البداية ظننتُ أنها هبّة وستذهب إلى حال سبيلها. وماذا عني؟ فأنا لا شأن لي بأية حركة من الحركات السياسية السابقة. شغفي يقتصر على الألوان والحياة والجمال، وليست لي أدنى علاقة بتلك الأمور المصيرية. ولكن من يتوقع أنها هذه المرّة كانت استثنائية.

ذلك اليوم، كنت أقف أمام الفرن، في انتظار خروج تجربة جديدة للأطباق المرسومة. فمنذ أن صنعتُ الأطباق الثمانية يوم زفافي، أفلت **لوه تشانغ جوي** من يده مهمة صنع الأطباق الملونة، وأوكلها بي. جاء إليّ شابّ علاقتي

به طيّبة، ربت على كتفي ومال عليّ وهمس في أذني ببضع كلمات. لم أصدق ما قاله، ظننته يريد أن يُفزعني بهدف المزاح. ولكن من يتوقع أنني بمجرد أن نظرت إلى الباحة الأمامية، حتّى وجدت حشداً متجمهراً من البشر، وكذلك لمحت بعض الشباب وهم يعلّقون ملصقات جدارية. وحين رأوني مقبلاً عليهم، تجنّبوني تباعاً. لم يعتَد الناس هنا على القيام بالحركات السياسية، وحتى الشبابِ الذين كانوا يعلّقون الملصقات، فأنا لا أعرف من هم، وقد استداروا ومضوا في لمح البصر. شعرت بالأجواء متوترة ومُقبضة للنفس. وفجأة خرق شعارٌ ضخم عينيّ: «اليميني الكبير **خوا شيا يو**، الهارب من شبّاك العقاب». عاودت النظر مرة أخرى -نعم صحيح- المكتوب هناك هو اسمي. ومن ثم فقدت رشدي.

ما الذي يجري؟ يميني أو غير يميني، ليست لي أية علاقة بذلك. عندما اندلعت حملة مناهضة اليمينيّين((12))، كُنت أشبّه بصخرة صغيرة واقفة في مكان بعيد على شاطئ البحر، لا يطالني حتى رذاذ الأمواج المتطاير. أردت قراءة المكتوب على الملصقات الجدارية بشكل مفصل، فلا بدّ أن هناك خطأ ما. تشوّشت عيناي. رأيت كلمات تقبض الروح، تُحاصرني من الشرق والغرب. أجبرت نفسي على التماسك والتزام الهدوء، فالمكتوب عليها ادعاءات مزيفة. وفوراً ذهبت لأبحث عن **لوه جيا جو**. فقبل أسبوع من ذلك اليوم كان أعضاء لجنة الحزب بالمحافظة قد أعلنوا أنه «قائد الثورة الثقافية» في مصنعنا، فصارت كلّ الاجتماعات الكُبرى أو الصُغرى في المصنع تُعقد من قِبله، وهو الذي يتحدث فيها. أما **لوه** الذي كان أمين سرّ لجنة الحزب، فقد أصبح أشبه بزهرية من البورسلين وقد وُضعت على الرف.

سُمّيت هذه الفترة فترة «العزل من المناصب».

لم يعد **لوه جيا جو** يرأس ورشة الآنية المزخرفة، فقد نُقل إلى مكتب كبير. وبسبب عدم اتساع الوقت لتعليق لافتة، أكتفى بلصق ورقة صفراء مؤقتة على الباب، مكتوب عليها «مكتب الثورة الثقافية». أول ما دفعتُ الباب، رأيت ما يقرب من ثمانية أشخاص متحلّقين حول طاولتين أو ثلاث، ويبدو عليهم أنهم منهمكون في كتابة ملصقات، أو يقلّبون في أوراق أو دفاتر. تفاجؤوا برؤيتي، وفي الحال، أدار بعضهم مؤخراتهم ليحجبوا رؤيتي عنهم، ولكي لا يتركوا لي فرصة لمعرفة ما يفعلونه. تقدم **لوه جيا جو** صوبي حتى وقف أمامي، وصار وجهه في مواجهة وجهي، ثم دفعني بصدره الجامد إلى الخارج، وأغلق الباب وراءه. سألته عن الملصقات الموجودة في الباحة، فقال بصوت جاف، أشبه بحكّ قطعة من الخزف:

«هل تسألني عن شيء فعلته أنت؟».

لم يكن بشوش الوجه كعادته، كانت هذه المرّة هي المرّة الأولى التي أرى فيها عينيه بوضوح، كانتا صغيرتين جداً، لونهما أقرب إلى الرماديّ المائل إلى الزرقة، ولكنهما كانتا أكثر لمعاناً من العيون السود، وكانت نظراته حادّة، وكأنها تطلق أشواكاً تنغرس في قلبك مباشرة.

خفق قلبي باضطراب، وكان كلّ ما أردته حينها هو العودة إلى غرفتي لأهدأ. كانت على جانبي الممرّ ملصقات كثيرة أثر الغراء عليها ما زال بارزاً ورطباً لم يمتصه الورق بعد، أما الحبر فكان كثيفاً وبرّاقاً، ومن رائحته يمكن تمييز أنه حبرٌ بخس الثمن. كان اسمي مكتوباً في كلّ ملصق على الجدران، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أخاف فيها إلى هذا الحدّ منه. كانت

الملصقات كالرصاص المنهال علي من كلّ الجهات.

فجأة قفز إلى ذهني أن أسلوب **لوه جيا جو** قد تغير معي قبل بضعة أيام. فقد كان يتحاشاني. وفي الواقع لو أن شخصاً كان يخشى منكَ، فسوف يكون في نيته إلحاق الضرر بكَ. فكان يتجنبني متعمداً. تذكّرت أيضاً أنه أوّل أمس، عندما كنا نلعب الشطرنج في منتصف الظهيرة، صاحت مجموعة من الشباب مثيرين ضجّة وداعين للتحدّي في اللعب بيني وبينه لكي يروا من منا الأفضل. ولكنه لم يوجّه لي كلاماً قطّ طوال المباراة، وقد بقي يكرّر جملة واحدة فقط وهو يحرّك أحجار الشطرنج: «يجب أن تموت، لا تلُمني في ذلك!».

ألم تكن هذه الجملةُ مزدوجةُ المعنى كافيةً لفضح نواياه الوحشية؟ فلماذا لم يخطر في بالي ذلك وقتها؟ بل وعلى العكس، فأنا لم أشعر بوجود أية مشكلة، فكيف لي أن أتحسس لمثل هذا الكلام العابر؟

كنت أسيرُ والتفكير يشغل عقلي، وفجأة ارتطمتُ بشخص وكأنني اصطدمت بحائط. كان **تسوي دا جياو**. حدجني بنظرات حانقة ودفعني قائلاً: «أنا قلت أنكَ معادٍ للثورة، أما زلتَ تدّعي أنكَ لا تفهم؟ إن **لوه جيا جو** يقول الحقيقة دائماً. فلننتظر لنرَ، الثورة ستستهدفك لتتخلص من أمثالك». وبعدما انتهى من كلامه ركل شجرة حور صغيرة بقدمه حتى كادت أن تُقتلع من مكانها. لطالما شعرتُ بأن ثمة طبيعة وحشية تكمن داخل هذا الرجل الأحمق؛ وكأنه ينتظر فرصة لينفّس عنها ويُطلق لها العنان.

لا أعرف من أين وقعت على رأسي هذه المصيبة، وأجهل مصيري في نفس الوقت، تمام الجهل. واجتاح قلبي إحساسُ أنني أضحيت مثل ضحية تكالب

عليها الجلّادون.

في المساء، وقفَت **جون جون** أمامي، كانت شاحبة الوجه، وقفنا صامتَين لوقت. بدت هذه اللحظة وكأنها خارج حيّز الزمن. سألتني فجأة:

«لماذا خدعتَني؟».

كان عتاباً، واستجواباً في آن.

كم هو صعب عليّ أن تسألني الإنسانة الوحيدة التي وقعت في غرامها مثل هذا السؤال. «خداع»؟ يا لها من كلمة مخيفة. ولكن كيف يكون بوسعي خداعها؟ أليس الحبّ هو أن تمنح نفسك لمن تحبّ؟

«أنا لم أخدعكِ»، قلتُ لها، «فأنا نفسي لا أعرف ما الذي يجري. وموضوع مناهضة اليمينية ليست لي أدنى علاقة به من الأساس. كلامي كله حقيقي. صدقيني **جون جون**». كانت كلّ كلمة تفوّهت بها صادقة، تماماً مثل كلّ ضربة فرشاة أنزل بها على اللوحة وأنا أرسم. قلت لها أيضاً: «أنا أشك بأن هناك شخصاً قد وشى بي، ولكنني عاجز عن تحديد من يكون. بدأ الخوف يتملّكني. نعم **جون جون**، أنا مرتعب». بدا لي أنني سمعت قلبي لحظتها وهو يرتجف، وشعرتُ فجأة بأنني لا حول لي ولا قوة، فطفرت دموعي.

Telegram:@mbooks90

أسنَدت رأسها على كتفي، ورفعت عينيها طويلتي الأهداب، واللتين لمعت بداخلهما ابتسامة، ثم قالت: «أنا معكَ، كيفما كنتَ. لو أنك ستناضل، فسأقف إلى جانبك. ولو اعتُقلت، فسوف أحضر لك الطعام يومياً. وحتى لو اعدمت رمياً بالرصاص ودُفنت... ما أقوله هراء! سأحفر حفرتك، وأجدُك، ثم أتمدّد إلى جوارك، بشرط أن لا ترمي بي إلى الخارج...». كان كلّ الصدق والإخلاص

والمشاعر المرهفة تلك، قد واست قلبي الذي كان يضخّ ألماً. وشعرتُ أنني التجأت إلى جدار في أوج محاصرة الأعداء لي، فسحبني خلفه ليحميني.

«سأغني لكَ أغنية، اتفقنا...؟». ثم دندنت لحناً بصوتها الرقيق.

انشرح قلبي فجأة. وخفّ التوتر في كلامي نسبياً.

«لستُ خائفاً. وأنتِ أيضاً يجب أن لا تخافي. فإنّكِ تحملين طفلنا الصغير في بطنك! لنثابر قليلاً من أجله!». رُفعت معنوياتي عندما قلت هذا الكلام بشكل صريح ومُعلن.

نظرَت إليّ **جون جون** مبتسمة، وأخذت تومئ برأسها مراراً، وهي تدندن بالأغنية. طرد غناؤها الناعم كلّ الهموم والقلاقل التي أثقلت صدري، بل ومنحني طمأنينة ودفئاً... لم أستمع من قبلُ إلى غناء يحمل داخله كلّ هذا القدر من التفاصيل. بسماعي إيّاها، شعرتُ أن غناءها يحمل بين ثناياه قدراً من الأسى والحزن والبؤس، وبشكل مبهم بدت لي وكأنها تبكي في كتمان. غزا قلبي شعور بالحزن، شعرتُ بتأنيب الضمير، وجال بخاطري كيف لي أن أسمح للخوف والقلق أن ينبُتان في قلب مثل هذه المرأة الرائعة، وأنه لم يكن عليّ التصرف بهذا الشكل قطّ. وفوراً داهمتني الهواجس؛ تخيّلت أنني سأُنفى إلى منطقة **بي دا خوانغ** البعيدة لإصلاحي بالعمل((13))، بينما ستعيش هي وحيدة بين جدران هذه الغرفة الصغيرة. وتحت ضوء ذلك النور الشاحب، ستُدندن بهذه الأغنية منتظرة عودتي. أو ربما بعد مرور سنوات، ستصحب طفلنا، وتمضي في طريق موحلٍ ومثلجٍ وطويل، لتبحث عنّي، وهي تدندن نفس الأغنية طوال الطريق. بينما أكون قابعاً في غرفة خشبية

صغيرة لحرّاس الغابات، فأسمع صوت غنائها يقترب، وحينها أهرع إلى الخارج وأحتضنها هي وطفلنا، حيث حبّات الثلج على أهدابها الطوال أشبه بحبّات اللؤلؤ. آه يا امرأتي الجميلة.

لم يكن هناك صوت غناء، تلاشت خيالاتي. أما هي، فقد كانت نائمة متّكئة عليّ. كان النور مطفأً، فاصطبغت الغرفة بظلام دامس. كان ضوء القمر منبعثاً من النافذة الخلفية، ينسدل نوره الخافت على وجهها الناعم اللطيف ناصع البياض كالثلج، والمستغرق في سبات عميق، كما كانت هناك ابتسامة عالقة في زاوية فمها. فجأة تذكرت أننا لم نأكل شيئاً، ولكنني لم أجرؤ على إيقاظها.

كانت تنام في سكينة، وتضغط بثقل جسدها على صدري لدرجة أنني شعرت بطفلنا الذي لم يأت بعدُ للدنيا، يتحرّك في داخل بطنها.

أثار ذلك سعادة أني سأصير أباً في المستقبل. سرَت هذه السعادة في أوصالي، فجعلَت جسدي يرتخي كلياً، حتى غلبني النعاس. وعندما غشي بصري وصرت بين النوم واليقظة، نبتت في خاطرتي فكرة غريبة وخيالية، هي أنني تمنيت بشدة أنه عندما استفيق، أجد أن كلّ ما حدث كان مجرد كابوس، وليس حقيقياً.

في الماضي، كنت دائماً ما أتمنّى أن يصير الحلم حقيقة، ولكن هذه هي المرة الأولى التي أتمنّى فيها أن تصير الحقيقة حلماً.

هذا ليس حقيقيّاً، ليس حقيقيّاً، ليس بالحقيقيّ... كانت هذه الكلمات تدور في مجموعة من المنامات الهلامية والمتقطعة والمثقلة بالهموم، التي رأيتها طوال الليل. في اليوم التالي عندما استفقتُ، صار الواقع أكثر سوءاً. لم

يمرّ وقت طويل على ذهاب **جون جون** إلى المدرسة، حتى امتلأت الباحة الخلفية بملصقات جدارية عني، والتي نشرت قضيّتي علناً وبشكل مفصل. كان كلّ ما كُتب عليها من كلام سبق وأن قلتُه تعبيراً عن استيائي من حملة ضد اليمينيين لعام 1957. مما أذهلني حقاً! كانت كلّ جملة تبدو كما لو أنني قلتها بالفعل، تماماً بنفس أسلوبي، ولكنني كنت عاجزاً عن تذكر إلى من قلتُها، وكذلك معرفةِ من كشفها وفضحها على الملأ. لو كنتُ حقاً قلتُ هذا الكلام، ألم يكن من الأكثر منطقية وواقعية أنني قد صرت يمينياً منذ أمد؟ مضبوط، فكل هذه الأفكار كانت أفكاري آنذاك، ولكن كيف يعرف الآخرون ما يجول بخاطرك، أيعقل أن يكون في العالم جهاز يفتش في أفكار البشر ونواياهم ويكشفها؟

لم يكن الدفاع عن نفسي بالأمر اليسير، ففي كلّ ورشة من الورش كان هناك عددٌ من الملصقات الجدارية التي تُعلن عن قضيّتي. أردت أن أعود للاختباء في غرفتي، ولكنني فوجئت أن ورقة بيضاء كبيرة معلقة على بابها، تُنذرني بضرورة الاعتراف بذنبي. كان الإمضاء المكتوب أسفل الورقة يُشير للحرس الأحمر، لا أدري من أين جاء هؤلاء. كان اسمي مثل اسماء السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، قد شُطب عليه بعلامة (X) كبيرة، بقلم أحمر. لم يكن الوضع مُبشّراً بخير، على أيّة حال.

في ذلك اليوم، تأخّر الوقت ولم تعُد **جون جون**. تملّكني القلق، ولكنني لم أجرؤ على الخروج للبحث عنها. خفتُ أن يظن الآخرون أنني أفرّ هارباً. كما أن الأمكنة خارج المصنع كانت تدور حولها مناوشات وفوضى وقتل واشتباكات، وهتافات متتالية بالشعارات هنا أو هناك. كان الدخان الكثيف

للنار المتضرّمة في «الأشياء الأربعة القديمة«((14)) يتطاير في كلّ مكان، وكذلك رماد الورق، والذي طار بعضٌ منه مقتحماً غرفتي كندفٍ ضخمة من الثلج. ما يحدث كان أشدّ ضراوة مما حدث عام 1957. وكأن مرض العصاب قد ضرب مركز المحافظة الصغير الهادئ هدوء غابة جبلية. كان الجميع قد جُنّ. تذكّرت أن **جون جون** حكت لي أن الطلاب في مدرستها قد أثاروا شغباً وضجيجاً كان يخرج عن مدى السيطرة. حبستُ أنفاسي لكي أسمع إن كان في الخارج صوت لوقع خطى **جون جون**.

لكنني لم أسمع صوت خطواتها، بل فوجئت بها واقفة عند الباب. صُعقت عندما رأيتها، كانت وجهها شاحباً وقد خلا من الدم كوجوه الموتى. شفتاها أيضاً كانتا بيضاوين، وكانت هناك هالتان سوداوان حول عينيها، كما كان شعرها أشعث، وضفائرها مقصوصة. كانت منهارة كلياً!

«ما...ما الذي أصابكِ؟» سألتُها.

لم تجِبني، ولكنها ردّت على السؤال بآخر:

«ألا تقول الملصقاتُ الموجودة في الباحة الحقيقةَ؟ لا يمكنكَ أن تُخفيها عنّي أكثر من ذلك. لقد منعني الحرس الأحمر((15)) من العودة إلى البيت، ولولا مجيء **لوه جيا جو** إلى مدرستنا، وإخبارهم أنني تمّ خداعي، لما أطلقوا سراحي. قال لي الحرس الأحمر أنه عليّ إجبارك على الاعتراف».

قلت: «كيف أعترف؟ نعم أعترف أن هذه كانت أفكاري، ولكنني لم أفصح عنها لأحد قطّ! سبق وقلتُ لكِ إنني غير شغوف بالسياسة بالمرّة، وأنني لم أناقش أحداً من قبل بمواضيع مشتّتة».

ركضَت إلى السرير بمجرّد أن سمعت ما قلث، ثم أخذت تُردّد:

«لقد انتهى، كلّ شيء انتهى! فلقد خدعتني! إن كنتَ لم تُفصح عنها، فكيف عرف الآخرون بها؟»

كلّ ما قدرتُ على فعله هو مشاهدتها وهي تبكي، بكت حتى نفدت طاقتها، ثم حملقت إلى الفراغ، وبقيَت هكذا الليل بطوله. بدا وكأن عينيها قد فرغتا من حدقتيهما، وحلّ مكانيهما ثقبان أسودان فارغان. لم أعرف كيف أواسيها. حاولتُ وضع يدي على كتفها، لكنها دفعتها ولم تسمح لي بلمسها.

غادرتُ البيت في صمت، عند حلول النهار.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما رفعَت الحياة من أمامي ستار المعركة. نعم، إن للحياة أيضاً طباعاً، وربّما كانت وحشيّة أحياناً.

تجمهر الناس في المصنع جميعهم في الباحة الخلفية. وجاءت أيضاً «مجموعة الثورة الثقافية»، ولكنني لم ألمح **لوه جيا جو** معهم. أما **تسوي دا جياو** فكان بصحبته بعض الأشخاص يضعون على أذرعهم شاراتٍ عسكرية حمرٍ عريضة مكتوب عليها بالأصفر «الحرس الأحمر». جرّني من ياقة قميصي وقادني إلى منتصف باحة الفناء. كان **لوه تيبه نيو** يقف إلى جواري لتلقي النقد. كان مُطأطئ الرأس، وبدا وكأن جسده المضغوط كعلبة أحذية ممزقة قد ازداد انضغاطاً. في تلك اللحظة تصاعد التوتر في الأجواء، صمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، وحده كان صوت تهديد ووعيد **تسوي دا جياو** يخترق أذني.

فجأة، انفتح باب الباحة الكبير على مصراعيه، ثم دخل فردان اثنان من

الحرس الأحمر جيّدا التدريب العسكري، وهما بهيئةٍ منتصبة، يحمل كلّ منهما بندقيّة على كتفه، يتقدّمان في خطى متناسقة، ويمسكان بينهما امرأة... كانت **جون جون**!

أوقفنا الحارسان قبالة بعضنا وعلى مسافة مترين اثنين. ووضعا على رأسينا قلنسوتين طويلتين من الورق((16)). مسكينة **جون جون**، كان شكلها يقطّع نيّاط القلب، صار من الصعب التمييز بين لون وجهها الشاحب ولون القلنسوة البيضاء. أردت أن أنتزع القلنسوة من رأسها وأطيح بها بعيداً.

إنك مهما كنتَ شجاعاً وقوياً، فتحت سطوة هذه اللحظة تحديداً، تصير ضعيفاً مسلوب الإرادة. حينها تكون الشجاعة ضرباً من ضروب الغباء. وبهذا الشكل تُغيّر الحياة كلياً مجرى مفاهيمها الأصلية. قلتُ دون تفكير:

«ليس **لجون جون** شأن بذلك! الأمر متعلق بي وحدي».

سألني أحد الحارسين وكان أسمر البشرة وقويّ البُنية:

«تقول إن ما تكشفه الملصقات الجدارية عنك حقيقي؟».

«نعم، نعم، نعم!». وكان كلّ همّي أن يطلقوا سراح **جون جون**.

«حسناً. بما أنكَ اعترفتَ بنصفِ الذنب. أكمل الإجابة، لمن قلت هذا الكلام؟». تابع سائلاً.

أردت الاعتراف، ولكن لم يكن هناك سبيل لذلك، فأجبتُ:

«لا أذكر».

«آمرك أن تقول!».

قلت: «قد مضى وقت طويل على ذلك، عليّ أن أتذكر جيداً، وعلى أية حال فقد اعترفتُ بالحقيقة كلّها». قلتُ هذا الكلام لكي أحرّر **جون جون** في أسرع وقت من قيود الظلم الواقع عليها. فمن أجلها أعترف حتى أنني قتلتُ.

استدار الحارس ورفع البندقية، ثم لكز بها كتف **جون جون** بقوة، قائلاً:

«ألم تقولي في السابق أن هذا غير حقيقي، ها قد أعترف زوجك بكل شيء. هل تعرفين ما هي عقوبة التستر على معادٍ للثورة؟».

صحتُ بهلع:

«لا تلُمها. أنا الذي خدعتُها! إنها لا تعرف الحقيقة».

فجأة ظهر **لوه جيا جو** عن شمالي وقال لي:

«أعِد ما قلته ثانية، أأخفيت هذه الأمور عن **جون جون** !».

فهمت من عيني **جون جون** الحزينتين المعتمتين، أنها لم تعُد تحتملُ سماع المزيد. ولكن لم يكن أمامي خيار آخر، اعتمدتُ على التلقائية في حمايتها.

«نعم، خدعتُها لزمنٍ طويل».

لا أعرف ما إذا كانت هذه الجملة قد حمَتها من أن تُجرح، أو أنها قد جرحَتها بالفعل.

بدا الرضا على وجه **لوه جيا جو**، ولكنه قال بنبرة ساخرة: «تُخادع امرأة، هه، يا لك من رجل نبيل». كانت ملامحه تشي بالغضب.

رفعتُ عينيّ واختلستُ نظرة إلى **جون جون**، كان وجهُها الذي تعلوه

القلنسوة البيضاء ممتلئاً بالحنق، وبدا أن أهدابها الطوالِ قد هوت كلها تباعاً، أما عيناها فقد كانتا تشعّان كراهية. شعرتُ بوخزة مؤلمة في قلبي، وأدركت أن كلّ شيء قد انتهى بلا رجعة.

انتزع **لوه جيا جو** القلنسوة من على رأس **جون جون**، وأشار بإصبعه إليّ، موجّهاً كلامه إليها:

«أما زلتِ ترغبين بالعيش مع مثل هذا الرجل؟ إن كنتِ غير راغبةٍ فبإمكانك أن تأخذي حاجياتك وتعودين إلى بيتك».

وبلا تردّد اتجهت **جون جون** إلى الغرفة فوراً، وحملت لحافها وحقيبة فيها متعلّقاتها. ثم رمقتني بنظرة تفيض كراهية، بل وازدراءً كذلك.

أما أفراد الحرس الأحمر الذين كانوا بصحبة **تسوي دا جياو**، فقد سحقوا غرفتي الصغيرة وهشموا ما فيها تهشيماً، بل وأخذوا منها أشياء كيفما اتّفق، أحضروها إلى الفناء ثم أشعلوا النار فيها. رفع الحاضرون قبضاتهم تباعاً مُردّدين الشعارات الثوريّة. شعرتُ أن ما يحدث أمام عينيّ إن هو إلا مشهد من مسرحية هزلية، تافهة ولا معنى له، وليست له أيّة علاقة بي على الإطلاق.

بداية من تلك اللحظة، أصبحتُ مثل دمية تتعرّض إلى لعبهم الهمجي. كانوا يريدون الإجهاز على حياتي. قال **تسوي دا جياو**، أنني ولدتُ بلا مؤهلات، وصمّم على أن يُعيدني إلى الفرن ليشكّلني من جديد، دلق على رأسي برميلاً من الطلاء الذي يُستخدم في تزجيج الخزف، ثم دفعني داخل الفرن. وفي تلك اللحظة التي حمل فيها الطابوق والطين الأصفر ليغلق الفرن((17))، صاح **لوه تشانغ جوي** ممسكاً بالكتاب الأحمر: «نريد حواراً، لا

لجوءاً إلى العنف»، ثم أخرجني من الفرن. هل تعتقد أن هذا هو أبشع شيء تعرّضتُ له؟ قطعاً لا، فإن أكثر ما أحرق قلبي ألماً هو أخذهم من المخزن كلّ أطباقي المرسومة التي صنعتُها بعرقٍ ودمٍ على مدار الزمن، والتي تجاوز عددها الخمسة آلاف قطعة، ثم رصّوها بإتساق في عشرات الصفوف، حتى امتلأت بها الباحة الخلفية. وسلّموني بعدها مطرقة، ثم أمروني بتهشيمها تباعاً.

إن كنتَ تبتغي معرفة مدى جمال الأطباق ودقّة صنعها، فعليك أن تمسكها بحذر وحرص، خوفاً من أن تنكسر في يدك. وبالطبع فلا سبيل لك لأن تراها الآن. فإن الفن الذي تُمليه روح الإبداع يستحيل أن يتكرر ثانية. لا أعرف بالضبط من هو صاحب هذه الفكرة الشيطانية. شعرت أنهم قد أمسكوا بمبردٍ وقاموا ببرد قلبي وأنا حيٌ. لم يكن بوسعي أن أحجم عن تحطيم الأطباق. قد يكون ما أقوله غريباً، ولكنني بمجرد أن كسرت بضعة منها، حتى تمنّيت من كلّ قلبي أن أضرب نفسي بدلاً عنها، لأنهي الأمر برمّته. بعد أن هشّمت حوالي الخمسين قطعة، شعرت وكأن ما أهشمه ليست أطباقاً، بل أرضاً طينية رخوة. كُنت مثل آلة تنهال على الطبق فتسحقه. وجدتُ نفسي أنهال على الأطباق بكل قوتي، مع صرخات **تسوي دا جياو** المتلاحقة: «حطّم! حطّم! حطّم! حطم!». بدا جسدي وكأنّه قد اجتاحته قوّة جهنّمية فياضة جعلته على وشك الانشطار. كان ذراعي يتحرك بشكل غريب، وصوت الخزف المحطّم ينخر شراييني. يبدو أن قوتي حينها كانت جبارة لدرجة أن شظايا الخزف المتهشّم المتطايرة انغرزت في وجهي.

فقدتُ الرغبة في كلّ شيء، ولم يعُد قلبي مُبالياً بأيّ أمر، أصبت باللامبالاة.

خفتت صرخات الحرس الأحمر شيئاً فشيئاً؛ وتوقف الجمهور عن الصياح، وكأن أصواتهم كُتمت في حناجرهم، بل وانتابتهم الحيرة أكثر مني، لأنهم من العمال الذين قضوا السنوات الطوال في العمل بالخزف، ويعرفون جيداً أن ما أحطّمه هو شيء لا يُقدّر بثمن.

بعد أيام استهدف الصراع في المصنع **لوه تييه نيو**، وانتقم منه الناس شر انتقام، لأنه أضرّ وأساء إلى عدد غير قليل منهم. كانت المهمة التي كلّفني بها جنود الحرس الأحمر هي أن أركع فوق حطام الخزف، وأقوم بترديد ما هو مكتوب في الملصقات الجدارية، كي أحفظه عن ظهر قلب. استمرّيت على هذا المنوال ليومين، حتى سال الدم من ركبتي. كنتُ قد ركعتُ لوقت طويل لدرجة أن شظايا الخزف المتناثرة قد خرمت سروالي وانغرزت في لحمي. في المساء، بعد عودتي إلى الغرفة، قمت بإخراجها، ولكنني كنتُ قد فقدت الشعور بالألم. كنت أفكر **بجون جون**، كان تفكيري فيها يسيطر على عقلي أكثر فأكثر. خفت أن تكون ما زالت تحت التعذيب. لا بأس في ما لو أنها قد ضمرت لي العداوة، أو حتى أن تكون قد كرهتني، فليس بوسعها في النهاية أن تكرهني من صميم قلبها. ستعود إليّ بمجرد أن تتذكّر الحبّ الصادق الذي ألّف بين قلبينا، ولن أكون مجبراً على تفسير أي شيء لها. ستفعل كما قالت، لن تتركني كيفما كنتُ، وأنا واثق من ذلك من صميم أعماقي. ولكن لماذا لم تأتِ؟ بدا الأمر وكأن كلّ المساحات من حولي قد خلت، خلت بسبب غيابها. فأنا أحيا فقط لانتظارها.

الفصل الخامس

ذات صباح، لم ينتظر **تسوي دا جياو** ومن معه خروجي لقراءة وترديد ما في الملصقات الجدارية. فقد اقتحموا غرفتي وأمسكوا بي من تلابيبي وسحبوني إلى الخارج، ثم راحوا يصفعونني على وجهي، متّهمين إيّاي بتمزيق الملصقات. أنتَ تعرف جيداً من كان -حينذاك- يقوم بمثل هذا الفعل، أي الضرب حتّى الموت. ومن حسن حظّي أني استسلمت لضرباتهم دون مقاومة، وبعد عدّة لكمات طُرحت أرضاً، ففقدوا شغفهم في مواصلة ضربي. وأشهد أني لو كنت بقوّة ثور حتّى، لكنتُ ميتاً من وحشية الضرب الذي تعرّضتُ له.

عندما نظرتُ، وجدت أنّ الملصقات كانت ممزقة فعلاً، وتملأ أرجاء الباحة. لكن من الذي فعل ذلك؟ وهل كان يحاول أن يزجّ بي إلى شفا الموت؟

أمرني أفراد الحرس الأحمر أن أقوم بتلصيق الورق الممزّق وأعيده إلى حالته الأولى، بشرط أن يبدو وكأنه لم يكن ممزّقاً. استغرقت مني هذه المهمة يوماً بأكمله.

في المساء، عندما كنت في غرفتي، لم تكن ثمة من ريح، وكان الطقس هادئاً.

كانت الأيام الماضية هي ذروة فترة إلقاء القبض على الناس وتعريضهم للنقد العلني، وكأن نيراناً تضرّمت في المروج، وخاصة آناء الليل الساكن. كُنت من حين إلى آخر أسمع أصواتاً مخيفة ومتقطّعة تنبعث من بعيد، وكذلك أصوات هتافات بالشعارات. فجأة، سمعت صوت تمزيق ورق في

داخل الباحة، شعرتُ من فرط الرعب وكأن قلبي قد ارتفع إلى حنجرتي. انسللتُ على أطراف أصابعي وتشبثت بالنافذة، ثمّ نظرتُ إلى الخارج، كان القمر يضيء بنورهِ الفناء الخاوي من البشر، وفي وسط حلكة الظلام لاحت بؤرة براقة من النور تنبعث متلألئة من قطعة خزف مهشمة. لمحت هناك في زاوية الجدار شخصاً يجلس القرفصاء، كانت تُخفيه العتمة، وكل ما تمكنت من رؤيته هو طِيفُه الداكن وهو يمزق الملصقات الجدارية. من يكون تُرى؟ من الواضح أنه يعمدُ إلى هذه الطريقة لتدميري. صحت فوراً:

«ماذا تفعل؟».

تسمّر في مكانه ولم ينهض. وبدا وكأنه يتخفّى في الظلام كي لا أكشف عن هويته.

«مَن هناك؟»، قلت ثانية.

وفجأة انطلق راكضاً بأقصى سرعته.

وبمجرد أن راح يعدو عرفته. لم يكن شخصاً، بل كلباً، إنه **فاحم**. ولكن لماذا يمزق الملصقات؟ هل ينتقم لي؟ هل يساعدني فعلاً! وكيف بوسعه قراءة الكلام المكتوب عليها؟ ما الأمر... خمّنتُ في ما بعد، أنه قد يكون اختبأ في مكان ما في الصباح، ورآني وأنا أعاقَب بالركوع إزاء الملصقات الجداريةماأ، وشعر أن هذا الشيء مهين لي، فجاء في المساء خلسة ليمزّقها. نعم، بالتأكيد أن هذا ما حدث!

في اليوم التالي، جرّني أفراد الحرس الأحمر لكي أتلقّى عقابي بسبب تمزيقي للملصقات. وضعوا برطماناً كبيراً على الأرض، وطلبوا مني أن أركع

فوقه. واشترطوا أني إذا ما أسقطت البرطمان فتحطّم، فهذا يعني أنني: «أفسد ممتلكات الدولة، وأعادي الثورة، وسأرسل إلى مكتب الأمن العام ليطبّق علي القانون».

وعلى الرغم من أن وزني لم يكن يتجاوز الواحد والخمسين كيلوغراماً. إلا أن الركوع فوق البرطمان بهذا الشكل كان يتطلّب مني أن أكتم أنفاسي، ولكن لم يمض وقت طويل، حتى بدأ البرطمان يهتز، كان **تسوي دا جياو**، ومن معه يتحلقون حولي ويصيحون بصوت عالٍ، محذّرين من اهتزازه. كانوا يستهزئُون بي. كلما ازداد توتّري. اهتز البرطمان بقوة أكبر، حتى صار سقوطه وشيكاً.

فجأة سمعت صوت زمجرة. كلب، إنه **فاحم** وقد أتى. كان يقفُ بعيداً وهو يزمجر. وفي كلّ مرة يكشر فيها عن أنيابه، كان فكه السفلي يهتزّ بقوّة، بينما شعره الأسود الذي يغطى جسمه كان يقف مثل معطف منفوش. لقد جاء لينقذني بطريقة هي غاية في الشراسة!

اتجه ثلاثة من الحرس الأحمر ليضربوه ببنادقهم. لكنه ببسالة، وبحركة خفيفة رشيقة، تفادى ضرباتهم بالوثب إلى الخلف، لم تطله الضربات، بل على النقيض، فقد مزق سروال أحدهم بأسنانه، وأجبر الجميع على الثبات في أماكنهم، وعدم الاقتراب منه!

لكن ذلك أثار شغف **تسوي دا جياو**، فقد أطلق سراح كلّ الأشياء الشرسة والوحشية الكامنة بداخله. أطلق لها العنان كما يتمنّى. لم يتوقف جسده عن الانتفاض بحماسة، وصارت مهاراته واضحة كالشمس. أمرني أن أنزل من فوق البرطمان، ثم أعطاني بندقية، وأمرني أن أضرب بها **فاحم**.

صاح **تسوي دا جياو** قائلاً: «إن لم تضربه، ستكونان شريكين في قمع ثورة الجماهير. وسوف نضربك حتى الموت!».

أخذت منه البندقية، وناديت على **فاحم**. سكت فور تفوّهي باسمه. تردّد قليلاً، ثم مشى صوبي. تراجع الحرس ببطء وخطا **تسوي دا جياو** إلى الخلف بمسافة مترين. الكلّ كان متوجساً منه، ثم التفتوا صوبي قائلين:

«هيا اضربه؟ ألن تضربه؟».

حملت البندقية، ولكن **فاحم** ظلّ ثابتاً، بل وظن أني ألاعبه. فاستقام بجسده، وأخذ يهزّ ذيله بسعادة، ثم قفز مرتين، أراد أن يمسك البندقية بقائميه الأماميين. كيف سأمد يدي عليه وأضربه؟ قلت له بصوت خفيض:

«امضِ... امضِ من هنا».

لكنه بقي في مكانه، بل تمدّد على الأرض، وأخذ يتمرغ بتودّد.

«إن لم تضربه، سوف نمزقك». صاح بي **تسوي دا جياو**.

قُلت **لفاحم** ثانية، بحزم لكن بصوت رقيق:

«إن لم تمضِ من هنا، فسأضربك فعلاً».

نهض **فاحم**، وتطلّع إلى وجهي، وبدا وكأنه فهم مقصدي. لكنّه ظل واقفاً دون حراك، كان يريد حمايتي منهم. لم يصدّق أن بوسعي ضربه، كانت نظراته مفعمة بالثقة.

صرخ **تسوي دا جياو**: «سأعد إلى الثلاثة، لو تراجعت عن ضربه ثانية، فسوف نضربكما ضرباً مبرّحاً؛ أنتَ وكلبك»، «هيا سأبدأ... واحد... اثنان...

أوشك أن أقول ثلاثة».

لقد أجبروني على أكون غليظ القلب، وعندما ضربته بعقب البندقية عوى، بل وقفز بارتفاع البندقية التي أحملُها، ثم نزل إلى الأرض، كان يريد أن يهجم عليّ. رأيت الشعر الذي يكسو رقبته وقد كان كله واقفاً. نعم... لقد أثرتُ غضبه!

فرح الحرّاسَ كثيراً بذلك، وأخذوا يهتفون: «عضه، هيا عضه يا **فاحم!**»، ولكنه لم يهجم علي. بل أخفض ذيله، ونظر إليّ بألم ولوم وآسى، ثم ولى وجهه راكضاً صوب المخزن، وبمجرد أن انعطف، اختفى عن الأنظار...

أنا لا أغفر لنفسي ضربه حتى اليوم. وأشعر بالوجع يفيض في داخلي لما فعلتُه. لستُ أكره نفسي وحسب، بل أحتقرُها أيضاً. فأنتَ تفهم أن احتقار الذات هو درجة أعلى وأعمق من الألم!

زاغت نظراتي إلى زوايا المخزن الخاوية. ولكن لم يسمح لي **تسوي دا جياو** ومن معه بوقت للشرود، قالوا إنني حرّضت الكلب على إهانة الجمع، فعاقبوني بشكل وحشي. هذه المرة عذبوا يديّ تحديداً، كلتيهما، ونعتوهما بأنهما قامتا «بالتحريض من وراء الستار»، وأمروني بإمساك بحجرٍ بيد، وضرب اليد الأخرى به؛ أضربها دون توقف، حتى أصبح عاجزاً عن حمل الحجر.

تلك الليلة، انهارت قوّتي.

كان سريري قد كُسر أثناء تفتيش الحرس الأحمر لغرفتي. ولكن حصيرة كانت عندي فرشتُها على الأرض. في الصباح كانت مؤخرتي توجعني، وعندما

كان النوم على ظهري يؤلمني، لم أجد أمامي من حلّ سوى تغيير وضعية نومي بالاستلقاء على بطني. كنت أمد يديّ إلى الامام، تلكما اليدان اللتان هشّمهما الحجر. كانتا تحترقان ألماً، فكان من الأفضل أن أترك هواء الليل العليل يدخل من الباب ليبرد وجعهما.

كان أفراد الحرس الأحمر قد اقتلعوا جميع نوافذ الغرفة لكي يراقبوني جيداً، بل وانتزعوا كلّ المصابيح والأسلاك الكهربائية، بحجّة خوفهم من إقدامي على الانتحار. كانت العتمة تبتلعني، ولكنها كانت الحالة المُثلى للخلود إلى النوم. وبمجرد أن غفوت، تبخر الألم ولم أعُد أشعر به. كنت أرنو من الباب إلى الفناء الضبابي المضاء بنور القمر، وكان كلّ ما يجول بخاطري مراراً وتكراراً هو كلمة واحدة: الليل، الليل، الليل... شعرت بجسدي يسترخي كلياً. وكأنني لا أستلقي على الأرض، بل أطفو على سطح مياه البحر الهادئة.

في تلك اللحظة، شعرتُ بيدين دافئتين تلمسان يديّ الجريحتين. كان إحساساً في منتهى العذوبة، وحقيقياً بشكل غريب، لا يبدو أبداً كحلم... إنها **جون جون**، لا أحد سواها ليأتي كي يهتمّ بي ويعطف عليّ ويواسيني في مثل هذه الأوقات الصعبة. لا أحد سواها!

ولكن عندما فتحت عينيّ، وعلى غير المتوقع، وجدت أنه **فاحم** وقد راح يلعق يديّ المجرّحتين، وبحنوّ. إنّه لم يحقد عليّ لضربي إيّاه في الصباح، بل وجاء ليطمئنّ عليّ.

«**فاحم!**»، ناديتُ عليه بصوت خفيض مُفعم بالأسى.

جلس إزاء رأسي. فلاح خلف جسده البابُ المشعّ بنور القمر البهيّ

والغامض. كان جسده معاكساً لاتجاه الضوء فبدا مُظلماً، وكان ذلك يحجب رؤيته بوضوح. أما ضوء القمر، فقد كان يعكس هالة فضية لامعة ومشعّة تكلل جسده. كان مثل أسد شجاع. كلّا، فالتشبيه الأدقّ أنه كان مثل إله، إله مهيب، نبيل ورحيم، تعتملُ في قلبه مشاعرُ إنسانية جيّاشة وصادقة، وكذلك عنيدة.

«**فاحم...**». -

تأثّرت للغاية. لدرجة أن صوتي كان يرتعش وقد ضاعت نبرتُه.

توقف حين سمع صوتي وتمشّى صوبي مقترباً من جسدي المُمدّد، ثم ربض إلى جواري. كان صامتاً وما يصدر منه فقط كان أصواتاً دافئة قادمة من جوفه. كان جلدي بارداً عندما لمسه بيده، لكن سرعان ما منحني جسده الدفء.

أغلقتُ عينيّ مستمتعاً إلى أقصى مدى بهذا الشعور الأكثر دفئاً ونقاءً ونُدرة في الكون. شعرتُ أن في صميم قلبي شيء ما يتدفق ساخناً، هل أن قلبي ينزف أم أنّه يبكي؟ القلب أيضاً يمكن أن يبكي...

بعد ذلك، صار **فاحم** يتردّد على نوبات. يأتي في جنح الليل ليؤنس لي وحدتي، ثم يغادر قبل طلوع النهار.

بعد جلسة نقد علنية كبيرة((18)) تم إرسالي للإصلاح بالعمل إلى جبل تشينغ شه. أركبني أفراد الحرس الأحمر على ظهر عربة عسكريّة مكشوفة كان **تسوي دا جياو** هو سائقها. أما **لوه جيا جو** فقد جلس إلى جواره في قُمرة القيادة. كان ذاهباً معنا لأنهم هناك في جبل **تشينغ شه** كانوا يهيئون

لاستقبالي في جلسة نقد علنية، وكان هو أحد المتحدّثين فيها.

كنتُ قلّما أرى **لوه جيا جو**. ورُغم أنني تحت رحمته الآن، إلا أنه لم يشارك قط في تصرفات الحرس الأحمر العبثية السابقة. كان منشغلاً **بلوه تييه نيو**. ظننت ذلك بسبب أن كلّاً منّا كان رساماً، ومن أجل الحفاظ على ماء الوجه، كان يشعر بقدر من الحرج في التعامل معي بقسوة من أجل إصلاحي وتقويمي. لكنني حقاً أبله! فقد كان هو صاحب كلّ تلك الأفكار المهلكة التي دعت الحرس الأحمر للبحث عني وتعنيفي أنا و**جون جون**، وإجباري على تكسير أطباقي الفنية، وجعل **تسوي دا جياو** يكسر يدي. كلّ تلك الأفكار الجهنّمية السود كان هو صاحبها. ولكنه لم يظهر في الصورة ليس إلّا.

كنت أجلس في منتصف حوض العربة العسكرية، ويحيط بي سبعة أو ثمانية من الحرس وقد قيّدوا ذراعيّ بحبل، ومن المحتمل أنهم كانوا يخشون أن أقفز من العربة. ترجّلتُ وسط لفيف من الشعارات لمئات المتجمهرين عند باب المصنع. وعندما اجتزنا مركز المحافظة، كان كلّ المارة في الشارع ينظرون صوب العربة ويشيرون إليّ. وما أن خرجنا من بوابة المدينة، حتّى صاح واحدٌ من الحرس الأحمر بغتة:

«انظروا، إنه يتعقّبنا!».

يتعقّبنا؟ من هو تُرى؟ اشرأبّيتُ برقبتي مصوّباً بصري إلى أسفل العربة، فإذا به **فاحم**! من أين أتى؟ وكيف عرف أنه يتمّ ترحيلي؟

كان يركض بسرعة جنونية، لدرجة أن تساوت خطاه مع سرعة العربة. كان يعدو تارة، وينبح على العربة تارة أخرى.

لم تكن هناك من زجاجة خلفية لقُمرة القيادة، مما أتاح رؤية **تسوي دا جياو ولوه جيا جو** من ظهريهما، وكذلك رؤية الطريق المنبسط أمام العربة من الزجاج الأمامي. التفت **لوه جيا جو** وسأل عمّن يلاحقنا. فأجابه الحارس: «ذلك الكلب الأسود»، همس **لوه جيا جو** إلى **تسوي دا جياو** بصوت خفيض، فازدادت سرعة العربة بصورة مباغِتة، في ما يبدو أنها محاولة لاجتياز **فاحم**. رأيت **فاحم** من بين المسافات الضيقة لأذرع الحرس، كان يعدو خلف العربة بسرعة؛ وبسبب تأرجحها، كان يظهر حيناً ويختفي في الحين الآخر عن الأنظار. تصاغرت صورته رويداً رويداً. ثم حجبها الغبار الكثيف الذي أثارته العربة خلفها، فصار صوت نباحه مسموعاً من بعيد، ولكن من دون رؤيته... عادت العربة إلى سرعتها الأولى، بعد أن اجتزنا **فاحم**.

دنا الوقت من الزوال، وتوقّفت العربة أمام مطعم صغير يقع إلى جانب الطريق. فربطوا نهاية الحبل الذي كان يقيّدني بالقضبان الخشبية للعربة، ثم تركوني ونزلوا جميعهم لتناول الطعام. وبعد حوالي العشرين دقيقة، لاحت نقطة سوداء صغيرة على بداية الطريق، ثم أخذت تكبر تدريجياً، وعلى مبعدة مئة متر من العربة، تبين لي أنه **فاحم**، وقد جاء عدواً على أطراف قوائمه. وعندما وصل أمام العربة، وجدتُ أن لونه قد استحال مُغبرّاً. حاولتُ أن أجرّ بجسمي إلى حافة العربة، وحاول عدة مرات أن يقفز إليّ بعزم، لكنه لم يفلح. بالتأكيد أن المسافة الطويلة التي قطعها في ملاحقة العربة قد استنزفت كلّ طاقته. كنت مقيّد اليدين وما من سبيل أمامي لأن أساعده، ولكنني مددت قدميّ خارج العربة، فتشبّث بهما، ثم قمت بسحبهما بكل ما أتيت من قوة، فانسحب معهما صعوداً إلى حوض العربة.

دفن رأسه في صدري، ونبح لمرات متتالية، كان ريقه ناشفاً وحنجرته جافة، وكان يُصدر أصواتاً تُشبه صوت صنفرة الخشب. لم أكن أفهم معنى نباحه، ولكنني كنت أعي تماماً سبب ذلك. ما من مشهد في حياتي بأسرِها جعلني أتأثر بمثل ما فعل هذا المشهد. سالت دموعي وسقطت قطرات منها حيث وجنتيه ذواتي الشعر الكثيف، فلمعتا. وكأنه هو من كان يبكي.

في تلك الأثناء خرج **لوه جيا جو** مع **تسوي دا جياو** ومن معهم بكروش ممتلئة، حمر الوجوه من احتساء الخمر، وحين صعدوا إلى العربة فوجئوا بوجود **فاحم**. صاح صوت: «كيف جاء هذا الكلب إلى هنا، هل تحول إلى روح شريرة؟». لكن **فاحم** لم يمنحهم الفرصة لأن يمسكوا به، فقفز إلى سقف قُمرة العربة، ثم كشر عن أنيابه ليهاجمهم، ولكن ضربة عقِب بندقية من على العربة أطاحت به وأوقعتهُ على الأرض.

نهض **فاحم**، وأخذ ينظر إلى العربة وينبح من على جانب الطريق.

قال **لوه جيا جو**:

«هيا تحرك بسرعة!».

وبمجرد أن أدار **تسوي دا جياو** محرك العربة وبات على وشك الانطلاق، حتّى ظهر **فاحم** فجأة متمدداً بعرض الطريق على بعد حوالي ثمانية أمتار من العربة بِنيّة عرقلتها، حتى لو كلّفه ذلك حياته. كان إصراره وجديته وثباته قد صدمت هؤلاء المجانين، فزلزلت قوتهم الجبارة؛ لحدّ أنه خُتم على أفواههم ولم يفُه أحد منهم قطّ. راح **تسوي دا جياو** يضغط على المُنبه بشكل متكرّر، ولكن **فاحم** لم يستجب له أو يتزحزح من مكانه. لم يكن خائفاً

على الإطلاق من صوت مُنبّه العربة. صاح **لوه جيا جو** على **تسوي دا جياو**:

«ادهسه».

وفي الحال، صحت على **فاحم** بنبرةٍ فيها رجاء:

«افسح الطريق يا **فاحم**...».

وبالرغم من أنني لم يكن لدي طفل بعدُ، إلا أنني كنت سأصيح بنفس النبرة لو كان ابني معرضاً لخطرٍ يهدّد حياته.

كان **فاحم** رابضاً هناك، ينظر إلى العربة التي ستدهسه، بثبات وهدوء يصعب على أيّ آدميّ أن يتحلى بهما. إن التصميم على الافتداء، هو أعظم تصميم في الحياة.

لم تتحرّك العربة. كان الأمر ينطوي على بعض الغرابة.

صرخ **لوه جياه جوه** في وجه **تسوي دا جياو**:

«لماذا لا تتحرك؟ آمرُك أن تدهسه!».

حملق **تسوي دا جياو** مشدوهاً، ثم صاح بصوت عالٍ:

«حسناً... سأدهسُه».

اندفعت العربة صوب **فاحم** للارتطام به، مثيرة خلفها عصفاً شديداً. وفي خضّم الصخب الذي خلّفه صراخي البائس، كان كلّ ما سمعته هو صوت صرخة أطلقها **فاحم** تحت العربة، إثر ارتطامها الوحشي والمفاجئ بجسده. انقبض قلبي على حين غرّة، وبفعل انقباضه الشديد، شعرت أنه يؤلمني، وكأنما خُرم بإبره. ثم بدأ جسدي يتراخى مثل سحابة دخان. لم تتحوّل

الأشياء أمامي إلى ضبابية؛ بل تلاشت مباشرة، وتلاشيت أنا أيضاً، وكأنني صرت جزءاً من العدم. قبل فقداني لوعيي بشكل تام، أردت الإمساك بأي شيء، ولكنني لم أقوَ، تحولت الدنيا أمامي إلى صورة بيضاء. يبدو لي أن ذلك الإحساس هو الإحساس بالموت، وحين أصل إلى نهاية حياتي، سوف أمرّ حتماً بالشعور ذاته.

الفصل السادس

كان جبل **تشينغ شه** عبارة عن مقلع حجارة ضخم، يعمل فيه أناس مُنهكون. ينحتون الصخور الجبلية ليستخرجوا منها الفلسبار((19))، ثم يحملونه على عربات أحادية الدواليب يدفعونها لاجتياز طريق جبلي ضيق، لتوصيله إلى الورش بُغية طحنه، حتى يصير مسحوقاً يُستخدم في صناعة الصلصال الصيني. تحمّل العربات بحمولات بالغة الثقل؛ وعندما تُدفع لكي تتحرّك صعوداً فإن الطريقة الوحيدة لتفادي الانزلاق هو الانحناء إلى الأمام بميل يوازي مقابض العربة.

يتعامل الناس هنا مع الصخور منذ زمن طويل، ولكن طباعهم ليست حادة أو خشنة أو قاسية مثلها، كما أن ميلهم للصمت هو الذي كان يجعلهم شبيهين بالصخور. أول ما جئت إلى هنا، نادت عليّ مجموعة العمال التي ينبغي أن أكون ضمنها، وكان كل منهم يمسك حجراً في يديه، بدأ الأمر وكأنهم على وشك أن يرموني بالحجارة إن صدرت منّي أية كلمة خاطئة.

كان قائد المجموعة يُدعى **تشن لاو وو**، وكان ذا وجه مشدود مثل جلد الطبلة، وجسد خالٍ من أية دهون، بل كانت كلّ عضلة من عضلاته بارزة ومجسمة كالصخر. سألني العمال: «ما سبب وجودك معنا؟ أسرقةُ مال أم زوجة؟». كان هذا السؤال يُطرح على كل المجرمين الذين يُرسلون إلى هنا. كان أهل الجبل يكرهون اللصوص والزُناة. وكان قول الوافد الجديد للحقيقة فيما لو كان قد اقترف أحد الجُرمين، يعرّضه للضرب المبرّح. قلت لهم إنّي رسام، وإني ما عدا «قضية رأي» لم أفعل شيئاً خاطئاً، وبذا أسقطوا الحجارة

من أيديهم، وصاروا يعاملونني معاملة طيبة، لكنهم حذّروني: « لا تحاول الهرب!».

مثلما ذكرتُ آنفاً، كان **تشن لاو وو** قائداً لهذه المجموعة الصغيرة، وكان رجلاً حازماً لا يمكن لأحد أن يهزمه في جدال. حين تمطر أو تثلج، وتصبح الطرق الجبلية وعرة، كان الجميع يبذلون قصارى جهودهم في العمل بدفع العربات عبر الجبل. مما يتطلب من **تشن لاو وو** أن يقود العمال ويرتجل أغاني عن زوجات العمال، مما يثير غضبهم فيسومونه أقذع الشتائم، وفي نفس الوقت، كانوا يصرّون على أسنانهم ويرددون معه. فيما لا يجرؤ أحد منهم على التراخي أو التواني. الوحيد الذي لم يكن **تشن لا وو** يذكر اسم زوجته هو أنا، ولا أدري إذا كان ذلك بسبب أنني غريب بينهم، فكان يشعر بالحرج من الاستهزاء بي، أو لأنه يعرف أنني دائم القلق على **جون جون**.

صار عمر صغيرنا الذي تحمله في بطنها ستة أشهر الآن. كنت في أحلامي أرى ملامح طفلي بوضوح، وكان يشبه **جون جون**. فسبق وأن قالت هي لي: إن الطفل يُشابه الشخص الذي يحبّ الآخر أكثر.

ذات يوم كانت الرياح تعوي بقوة في الخارج، جاء **تشن لاو وو** إلى غرفتي الصغيرة، حاملاً قدحاً من نبيذ الرزّ. قال لي:

«يا ولدي، تعال لنحتسِ قليلاً من الشراب، وعندما نثمل، سأُخبرك بشيء».

سألته ما الأمر، ولكنه لم يجِبني. انتظر حتى بتنا نصف ثملَين، وقال:

«زوجتك تطلب الطلاق».

صعد الشراب برأسي مما دفعني لأن أغدو شرساً، فصِحت: «اغرُب عن

وجهي! فقد وجب قتلُك. ألا تخاف منّي».

احمرّ ت عيناه حتّى غدتا بلون الدم. فحدقَ بي قائلاً:

«ومن ذا الذي يخاف منكَ؟ أتعلم أن زوجتك قد اسقطت ابنك الذي تحمله في بطنها».

احمرّ وجهي وصعد الشراب إلى رأسي، قذفتُ بالقدح صوب الجدار، فتفتّت. ثم كوّرت قبضتيّ ورحتُ أضرب على صدر **تشن لاو وو** الصلد كالصخر، كما لو أنني أقرع على طبل، وصحت وأنا أنتحب: «أعِد لي ابني، أعِد لي ابني». لم يتحرّك، بل ثبّت صدره وتركني أضرب عليه، وانتظر حتى انهارت قواي، وفجأة لكمني بعنف، لكمة طرحتني أرضاً.

كانت لكمتُه مثل طلقة مدفع، إذ أطارت الشراب من رأسي. سمعته يقول :»أي نوع أنت من الرجال؟ يا لك من رعديد!». ثم جحظت عيناه وكادتا أن تخرجا من محجريهما.

أعتقد أن لكمته كانت أسعد لكمة تلقّيتها في حياتي؛ لأنها فتّتت كتلَ الصخر التي كانت جاثمة على صدري.

من ثم، استلقيت منتحباً على السرير.

رآني أبكي فلم يواسِني، ولكنه عندما رآني وقد فرغت من البكاء، أخرج من جيبه قطعة فجلٍ أخضر وقسمها إلى نصفين، ثم رمى إليّ بنصف قائلاً: «كُل! فقط هوّن عليك، وستكون بخير». ثم أزاح عنه ستارة الباب ومضى.

أليس غريباً أني، وبسبب **تشن لاو وو**، قد استطعتُ من تحمّل حدثٍ مأساوي كهذا، عادة ما يدفع المرء للجنون؟ سالت الدموع على وجنتيّ وأنا

ألوك نصف قطعة الفجل الباردة، وشعر قلبي بقدرٍ من الارتياح.

ها قد انتهى إذن أمرُ بيتي وزوجتي. لن ينشغل بالي مُجدداً بشأن **جون جون**. هل يوجد ما هو أكثر قسوة وفظاعة من امرأة تقتل ابناً من دمها ولحمها؟ يا لابني المسكين الذي اخترت له اسماً، لن أقوى على نطقه الآن. ورغم أنه لم يولد قطّ؛ ولكن الأمر يشبه سماع اسمٍ لميّت عزيز على القلب.

في تلك اللحَظة، بدأ يطفو رويداً رويداً من أعماق وجداني، طيفُ محبوب كثيف الشعر؛ إنه **فاحم**!

كان طيفه يلازمني، ويظهر لي في كل زمان ومكان، يلوح أمامي حتّى بدون التفكير فيه. لم تكن هلوسات مرضية، بل رؤى جميلة. كنت أتخيّل، وأنا أدفع العربة التي تحمل الأحجار، صورته تلوح أمامي، وهو يساعدني في دفعها مستخدماً طرفيه الأماميين. كنت كذلك أتخيّله وهو يجلب لي الحذاء عندما انتهي من السباحة في النهر وأصعد إلى الجرف. كما كنت أتخيّل نفسي حين أتناول الطعام، وتكون هناك عظمة ببقايا من اللحم، فأقول له: «**فاحم**، ارفع يُمناك!»، فيفعل ما أقوله بذكاء. ثم أقول: «ارفع يُسراك»، فينفّذ في الحال. فألقم فمه الورديّ العظمة إيّاها ، فيما اللعاب يسيل منه...

ولكن عندما كان يتجسّد أمام عينيّ مشهد ضربي إيّاه بعقب البندقية الخشبي، ونظرة عينيه الفائضتين بالوجع واللوم والحزن، كنت على الفور، أشتّت تفكيري بالنظر إلى شيء آخر، كي أعيد دفن هذه الذكرى التي بُعِثت للحياة، وبمجرد أن تستعيد أذني صوت عوائه الحزين عند ارتطام العربة به، أعمدُ يائساً إلى الدندنة والغناء بصوت عالٍ، لأطمس العذاب الدفين في أغوار قلبي، والذي يصعب الفرار منه. كنت أسعى لمحو الماضي برمّته من ذاكرتي؛

مصنع الخزف، أطباقي التي أجدتُ صنعها، **لوه جيا جو، تسوي دا جياو وجون جون**... وكذلك أنسى **فاحم** وأنه كان ميتاً. لقد أردتُ أن أبقيه حيّاً بداخلي، مرافقاً لي على الدوام، لأنني أمنتُ بشدّة أنه طالما بقي معي، فأن بمقدوري تذليل كافة المصاعب.

ولكن أليس صحيحاً أننا نعجز عن نسيان كلّ ما نسعى إلى نسيانه؟

ومن أجل التوقّف عن الانغماس أكثر من ذلك في خيالاتي؛ قمت بتشكيل تمثال من الصلصال يبلغ طوله خمس بوصات، وطليته باللون الأسود. جعلته يشبه **فاحم** تماماً، وخاصة في تعابيره. في البداية وضعته على حافة النافذة، وبحلول الليل، نفذ ضوء القمر، فأحاطه بهالة مُشعّة من اللون الأزرق الفضي، كانت الأجواء تشبه أجواء تلك الليلة التي ضربتُه فيها، حينما جاء وجلس أمام رأسي وأخذ يلعق يدي. كم واساني ومنحني مشاعر دافئة يومها؟ ولكنني حُرمت من رؤيته ثانية. مشيت صوب النافذة، وحملت التمثال من على حافتها، فصارت النافذة تماماً كعالم خاوٍ، وبقي ضوء القمر القاسي وحده متصدّراً المشهد، يُلقي بشعاعه الهادئ على حديد النافذة المشغول. كاد الاكتئاب يخنقني، ولكنني لو كنت فتشت في مشاعري، لما وجدت قد تبقى منها سوى: كرهي الأعمى **لتسوي دا جياو!**

آخر شيء توقعته، أن يكون تمثال **فاحم**، هو السبب في لقائي **بتسوي دا جياو** مرة أخرى.

الفصل السابع

في ربيع العام التالي. جاء طفل من سكان الجبل راكضاً، ودخل إلى غرفتي، فجذب انتباهه الكلب الأسود الصغير الموضوع على الطاولة، وبالطبع تشبّث به. من أين له أن يعلم مودّة **فاحم** في قلبي؟ ولكنني عندما رفضت إعطاءه له، جرى وأحضر كلباً من الصلصال، وقال إنه يريد استبداله بكلبي. وبمجرد أن وقعت عيناي على التمثال الذي يحمله، حتى صرخت من فرط دهشتي، ففزع الطفل وتراجع خطوتين إلى الوراء، وكأنه رأى الروح وقد دبّت مجدداً في ذلك الكلب فعضّني. قد أجزم أنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مثل هذا التمثال، الذي يدفع المرء للصياح بهذا الشكل من فرط الإعجاب به! لم ترَ عيناي أبداً قطعة فنية جريئة ورائعة بهذا الشكل! كيف أن بها كلّ هذه المبالغة والمغالاة؟ فأن أي فنان جريء سيكون أمامها عاجزاً، بل أشبه بامرأة ملفوفة الأقدام((20)). كان رأس هذا الكلب ضعف حجمه، أما أطرافه الأربعة فكانت أشبه بنقاط صغيرة، وكان ذيله المرفوع إلى أعلى كالبطاطا الصغيرة يداعب المرء. تحملق عينيه فيك، بينما فمه الكبير مفتوح ببلاهة، وكأنه ينظر إلى جرادة قفزت على أرنبة أنفك. وأمام صدره باقة زهور ضخمة، أما رأسه فكان مرصعاً بقطع كبيرة وغريبة من اللؤلؤ. كان فخماً ومُبهجاً، وبطنه منتفخة، وجسده قوياً وشديداً، فيجعل ذهنك يستدعي، وعلى الفور، الأمل المُلحّ والصادق للفلاحين تجاه الحياة، والذين نشأوا على أرض الصين منذ آلاف السنين.

لم يُطلَ التمثال بالأبيض وحسب، ولكنه صبغ بخمسة ألوان أساسية أخرى: الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والأسود، ولم يستخدم خلط الألوان أو

طبقة طلاء أولية؛ كان كلّ لون منفصل عن الآخر. أليست ضربات الفرشاة التي لُوّن بها أكثر جرأة وتطوراً وأناقة من ضربات فرشاة «**با دا شان رن**»؟((21)) مستحيل أن تُعَلّم مثلها حتى في كلية الفنون. فإن الأساتذة الجامعيين يعتمدون على «العلم» في الرسم، أما الفلاحون فيعتمدون على «الشغف» في الرسم، يا ترى أيّ منهما هو الفن الحقيقي؟ بمجرد أن ترسم بنفس الطريقة القديمة، أضمن لكَ أن ضربات فرشاتك ستكون ميتة، بينما ستكون ضربات فرشاته حيّة لامحالة! أليس هذا غريباً؟ لم يخطر على بالي قط، أن تربة هذه القرية النائية المنعزلة، لا تُخفي في باطنها الفول السوداني والبطاطا فحسب، ولكنها تُخفي أيضاً فنّاً حقيقياً وأصيلاً. وخاصة أنهم هنا يحبّون استخدام اللون الأزرق، وهو أول ما يظهر، يبرز طاغياً على كلّ الألوان الأخرى! يا لهُ من شيء مذهل!

سألتُ الطفل من أين جاء بهذا الكلب. فقال إن **تشو** العجوز، قد أتى إلى هنا حاملاً بضاعته في سلّتين معلّقتين إلى عصى على كتفيه، ثم باعه. وبعدما استعلمتُ عنه من أشخاص متفرّقين، أتضح أنه من قرية **تاي تو** في إقليم مجاور. وأن سكان هذه القرية يجيدون تشكيل تماثيل الصلصال.

ذات يوم من أيام العطلة. قمتُ بجمع كلّ ما أملكه من نقود، وكانت أربعة يوانات وجياو واحد وسبعة فِينات((22))، ودسستُها بداخل حزامي، وأخذت شوالاً لأضع فيه تماثيل الصلصال، وانتهزت ضباب الفجر فقمتُ بالتسلّل خلسة خارج **جبل تشينغ شه** دون أن أخبر أحداً. فأنا في نهاية المطاف مسجون للإصلاح بالسُخرة، وإن أنا أفصحت لأحد عمّا أنوي فعله، فلن يجرؤ أي شخص بالسماح لي في الذهاب.

بوصولي إلى قرية **تاي تو**، سألتُ فلاحاً عن العجوز **تشو**. وبمجرد أن علم هذا الرجل أنني أرغب في شراء تماثيل الصلصال، قادني إلى غرفة من الخوص خلف بيته. رفع بضع حزم من الخوص، وإذا بالغرفة تغصّ بتماثيل الصلصال. هذا المكان جديرٌ حقاً بأن يُطلق عليه «متحف اللوفر الشعبي». كانت تماثيل الصلصال الضخمة بارتفاع قدمين، أما الصغيرة منها فبطول الإصبع. تماثيل للبشر والخيول والقطط والكلاب، تتوشّح بألوان زاهية وخلابة، وكل تمثال له ملامح وتعابير مختلفة يتطلّع بها إليك. زاغ بصري من الانبهار، وعندما ثبتُ إلى رشدي، اخترت بعض التماثيل الجميلة المتميزة لأبتاعها.

ظنني الفلاح تاجراً للبضائع المتنوعة، فعرض علي سعراً. قلقت أن يكون المبلغ أكثر مما أحمله من نقود، لم أتوقع أنه سيطلب يوانين اثنين فقط لا غير، هل بيوانين اثنين فقط تُشترى كلّ هذه الأشياء الثمينة؟ أعطيته ثلاثة يوانات فكاد أن يطير فرحاً، وساعدني في تغليف التماثيل بالقش، ثم أعطاني حشوة قطنية متهرّئة لأضعها كبطانة في أسفل الشوال. وذكر ضمن حوار دار بيننا، أن قرية «**يو زي**» الواقعة على الضفة الأخرى من النهر، فيها سيدة عجوز تدعى **خوانغ**، من **تشانغ داو** بمقاطعة **شاندونغ**، وهي امرأة ماهرة في فن تفريغ الورق((23))، يلقبها الناس بـ «إمبراطورة تفريغ الورق». وأنها تزوّجت وانتقلت إلى هذه القرية منذ أعوام طويلة، وكان من بين جهاز عرسها مئة وثمانية من قوالب الصلصال، كانت على أشكال المئة وثمانية أبطال لرواية «أبطال على حافة البحيرة»((24)). وإن كلّ من رآها قال عنها إنها كانت تنبض بالروح أكثر من ممثلي المسرح. لم تتحمل السيدة

العجوز خوانغ، فكرة استخدامها في عمل الصلصال وبيعه، وقد قيل أنها توارثتها عن أجدادها، ولا يوجد مثلها في **تشانغ داو** كلها.

وبمجرد أن سمعتُ ذلك، حملتُ التماثيل على ظهري متوجّهاً إليها. كانت خطواتي سريعة جداً وأنا أعبر النهر، لدرجة أنها أحدثت رذاذاً متناثراً، كان أشبه بمجموعة من الأزهار الكريستالية.

ذهبتُ إلى القرية وعثرت على السيدة **خوانغ**، ولكنها في البداية أنكرت، ونفت أنها هي الشخص المقصود. ولكن حين عرفت بأنني رسام، سالت دموعها وهي تخبرني حكاية المئة وثمانية قوالب، أنه ذات يوم طقسه حار من عام 1966، جاءت مجموعة مبعوثة من الكومونة الشعبية، وأجبروها على التخلي عنها، قائلين إن هذه القوالب تندرج تحت «الأشياء الأربعة القديمة»، وهشموها حتى صارت فتاتاً. تذكّرت فوراً أطباقي، وشعرت فجأة أن هناك شيء يربط بيني وبين هذه السيدة.

قامت العجوز بإخراج شيء أشبه بوعاء فخاري صغير من صندوق كان في الأصل بقايا من قالب صلصالي، وهي القطعة الوحيدة المتبقية والتي حفظَتها. كان يظهر من القالب نصف وجه، بمجرد أن تنظر إليه يمكنك أن تعرف في الحال أنه شه تشيان((25)). كان ذكاؤه المتّقد يشعّ من الوعاء.

فركت يديّ فوراً من فرط دهشتي بهذه القطعة الفنية الساحرة، وبدا لي وكأنها خرجت لتوّها من الفرن، لا أجرؤ على لمسها، لأنها ستلسع يدي. أجزم، أنها القطعة الوحيدة الموجودة في العالم الآن، ولا توجد قطعة أخرى مماثلة لها.

لمست العجوز **خوانغ** مشاعري الحقيقية، فتأثّرَت بها.

كان وجهها نحيفاً وطويلاً وممتلئاً بالتجاعيد، وهي عندما تقطّب جبينها تصير التجاعيد مثل نسيج عنكبوت يغطّي وجهها. ضحكَت، فتلاشت كلّ هذه التجاعيد، وكأن وجهها قد مزّق نسيج العنكبوت ثم برز. تخطّت حفيدتها الصغيرة التي كانت تنام فوق مصطبة المدفأة مصطبة المدفأة((26))، وصعَدت إلى هناك ورفعت الحصيرة، ثم أخرجت كيساً قماشياً، وورقة سوداء مطوية.

سحبَت مقصّاً لامعاً من داخل الكيس القماشي، ثم فتحت الورقة السوداء، والتي كانت بحجم سطح طاولة كبيرة، ثم قالت لي: «سأفرّغ لكَ ورقة». كان المقصّ الذي في يدها يلتمع وهو يدور منعطِفاً على الورقة، في حركة مصحوبة بصوت واضح لحفيف الورق المقصوص الرقيق الذي يتساقط تباعاً.

كانت تثني الورقة من ناحية، وتقصّها بضع مرات، ثم تطويها من ناحية أخرى، وتقصّ بشكل متتالٍ، صارت الورقة السوداء أشبه بطائر سنونو يضرب بجناحيه. بعد نصف ساعة تقريباً، فردَت تلك الورقة على مصطبة المدفأة، والتي كان حجمها حوالي ثلاث مساطر مربعة، وابتسمت قائلة:

«لم أُفرّغ الورق منذ عامين، لم تعُد يداي ماهرتين كما في السابق، هذا العمل يُسمى: «السمك الذهبي الذي يسبح في الحوض».

رمشت عيناي مدهوشتين، وكأنهما لم تُصدّقا أنهما تريان هذه الأعجوبة أمامهما. هل يمكن لورقة ومقصّ، أن يضعا بين يديك عالم البحار بأشكاله

وألوانه، وما فيه من غموض ومناظر فريدة خلابة؟ هل تصدق أن مثل هذا التكنيك الفني، وما يحتويه من مبالغة وتحوّل في الشكل وإبهار، يخضع إلى رغبة وسيطرة تامة لهذه السيدة الريفية؟ كان تباين شكل خطوط الورقة حُرّاً كالخيال، يتباين بين سُمكٍ و رقّة، فتارة يكون رقيقاً كشعرة، وأخرى يكون سميكاً كذيل بقرة، وخاصة الخطوط السود الكبيرة والمحبّبة والمجعدة، فقد كانت تنبض بحِيوية رهيبة يصعب تفسيرها...

لطالما كانت لديّ أفكارٌ ضبابية، لا أجرؤ على تأكيدها أو الجزم بها. كُنت أظن أن الفنّ الصيني القديم، وخاصة ما تضمّنه فن أسرتي **خان وتانغ** من خيال جامح وحيوية جبارة، وجرأة في الابتكار، وتجديد في الحياة، وإطلاق العنان لجمال مطلق، وقوّة فنّ مزلزِلة لكيان المرء؛ قد ضعف وتدهور بانهيار واندثار الأسر الإقطاعية الحاكمة.؟ ولكن اتّضح أن هذا القول ينطبق على فنون البلاط فقط، لأن الحقيقة أن هذا التيار الفني الحيوي المتدفّق، لم ينقطع حتى يومنا هذا، فهو بكلّ بساطة يجري في دماء الشعوب! بدءاً من الرسم على الكهوف، ومروراً بالأفران الحجرية، والبرونز، وتصوير الأشخاص على الحجر، والتماثيل الجنائزية، وصولاً إلى رسوم عيد الربيع، وتماثيل الصلصال، وفن تفريغ الورق، وطباعة الباتيك، وفن الخزف. إن حيوية الفنّ الشعبي ما زالت تتدفّق بقوّة جارفة في أُمّتنا العظيمة. لماذا لا تنقل كلّيتنا الموقرة للفنون مكانها بين الشعب؟

عندما رأيت هذه السيدة الريفية البسيطة، اتّقد قلبي بالتفكير، ووجدت أن النسختين الصينيتين من **بيكاسو وهنري ماتيس** موجودتان بين أبناء الشعب، وأن هذه السيدة يجب تكون إمبراطورة المركز الفني الحديث!

أخبرتني السيّدة أنها عاشت منذ طفولتها بجوار البحر، وأنها تعرف جيداً كلّ أنواع الأسماك. ثم قامت بإطلاعي على كلّ أعمالها، من حصان البحر، والحبار، السمك المفلطح، والزبيدي الفضي، وثعبان البحر... ولكنها قالت إنها لم تُفرّغ سمكة قرش قطّ، لأنه عندما كان زوجها في الثلاثين من عمره، غطس لاستخراج اللؤلؤ، فافترسته سمكة قرش، ومن حينها صارت أرملة... قالت إنها كانتِ تلصق مثل المقصوصات السود للورق على سقف البيت في **تشانغ داو**، وتتأملها وهي تضجع على مصطبة المدفأة، فيغلبها النعاس مع طول إدامتها النظر إليها. لذلك لم تحتمل أن تُبقي على سمكة القرش ماثلة أمام عينيها طوال الوقت، وإلّا فلن يعرف النوم إلى عينيها سبيلاً.

أومأتُ برأسي، مُعبّراً عن تفهّمي. إن التجارب المتشابهة هي دائماً أساس التّفهّم.

لم أعرف كيف يتعيّن عليّ أن أعبّر لها عن شكري. فكل ما استطعتُ فعله هو إخراج النقود المتبقية معي، والتي أخفيتُها في حزامي. مما أثار غضب **السيدة خوانغ** كثيراً حتّى صار وجهها مثل لوح مصمّت خال من التعابير، وتحولت التجاعيد إلى خطوط مستقيمة. قالت إن هذه آخر ورقة ستفرغها. وإن آخر مقصوصة لن تباع مقابل النقود.

طويتُ مقصوصة الورق إلى أربع طيات، وقمت بحشوها بقطعتين من حصير القش المتهرّئ، ثم أدخلتُها في الشوال. انتهزتُ فرصة انشغال الفنانة الكبيرة في توديعي، ودسست خلسة ما تبقى معي من النقود، تحت وسادة حفيدتها التي كانت تغطّ في النوم فوق مصطبة المدفأة.

في طريق عودتي هطل المطر بشدّة، لم أكترث لابتلال جسدي، خشيتُ

فقط أن يبتلّ الشوّال فتخرب ما بداخله من أشياء ثمينة. دخلت إلى استراحة للمسافرين. كانت عبارة عن غرفة كبيرة بجدران من قصب البامبو والطين، وسقف من القش، وفي المنتصف هناك برميل نفط قديم مستخدم كموقد، وبدون مدخنة، وفوق الموقد قدر شوربة معكرونة، تنبعث منه إضافة للدخان حرارة وبخار كثيف، وهناك مجموعة من سائقي العربات والمسافرين مستلقين على الحصيرة متحلّقين حولها، متدثرين بمعاطف بالية، ويغطّون في نوم عميق، أما من هم بدون معاطف، فكانوا ينامون محشورين بالبعض. ولم أعرف إن كانت وجوههم حمراً كالطماطم بفعل حرارة الغرفة أم الحرارة المنبعثة من نار الموقد. قلت لصاحب الاستراحة، إنني لا أملك مالاً، وسألته لو يسمح لي بأن آخذ قسطاً من الراحة في المكان، وإن كان بإمكانه إعطائي شيئاً آكله. فتفحّص وضعي الصعب، ثم غرف في وعاء صغير قليلاً من حساء المعكرونة الساخن وأعطاه لي. كان الحسَاء أكثر من المكرونة. هاه! جيّد جداً، أخيراً حصلتُ على طعام! أجوب منذ صبيحة اليوم، وقد بلّلني المطر، ومعدتي صارت أشبه بحقيبة مفتوحة، تنتظر دخول أي شيء إليها ليملأها. أخذتُ الوعاء، وتناولته في جرعة واحدة مثل الخنزير، حتّى أنني التهمت حبيبات الرمل المستقرة في قعر الوعاء.

لا يمكنني البقاء هنا مطوّلاً. لو تأخرتُ في العودة أكثر من ذلك سيظن **تشن لاو وو** أنني فررتُ هارباً. انطلقتُ في طريقي بخُطىً مسرعة، وبمجرّد أن مشيت لمسافة نصف كيلومترٍ، حتى وجدتُ ورائي عربة كبيرة. وقفتُ إلى جانب الطريق لأفسح لها الطريق لتمرّ، ولكنها هدأت سرعتها، حتى توقفت إلى جواري، وفجأة فُتح الباب، وقال لي السائق: « فلتصعد!». أثّر فيّ كثيراً

هذا التصرف، فقد جال في خلدي، أن القدر قد وضع في طريقي شخصاً طيّباً. فتلوتُ آيات الحمد والثناء، ثم قفزت صاعداً إلى العربة، واضعاً الشوال أمام قدميّ.

انطلقت العربة، وسألني السائق: «إلى أين أنتَ ذاهب؟».

وبينما كنت على وشك أن أجيبه، استغربت في قرارة نفسي عن سبب اهتمامه بوجهتي. هل يعرفني؟ كان وقع صوته مألوفاً جداً على أذني. كان يأخذ نفَساً عميقاً من السيجارة في اللحظة التي التفتُّ فيها لتفحّص وجهه، فأسفر نورها المشتعل عن ملامحه. يا إلهي ! إنه **تسوي دا جياو!** وجدتُ نفسي أركب في نفس العربة التي دهست **فاحم.**

صحت في وجهه: «قف، دعني أنزل!».

لكنّه لم يكترث لما قلت، واستمرّ في قيادة العربة.

«أنزلني أقولُ لكَ».

«اجلس جيداً، سأوصلك!». ردّ علي وهو يقود العربة بسرعة جنونية.

انتفضتُ، وحاولت أن أشدّ فرامل اليد وأنا أردّد: «لن أركب عربتك هذه، لن أركبها أبداً»، ثم تشبّث كلانا بالمقود.

فجأة أوقف العربة، وصمت لوهلة، ثم قال لي:

«حسناً، فلتنزل إذن».

نزلت من العربة. وانطلق هو ماضياً. كنت أسيرُ في طريق ممتلئ بالوحل، ورغم أنني كنت أبذل قصارى جهدي للعودة بسرعة، إلا أن الطين كان يلتصق

بحذائي فيُثقل خطواتي. وصلت إلى **جبل تشينغ شه** بعد خمس ساعات من السير المتواصل.

تحت جرف حجريّ، في مكان لا يصل إليه المطر، أخرجتُ الأشياء الموجودة في الشوال ثم غطّيتها جيداً، ووضعت عليها بعض العشب، ثم عدتُ إلى الغرفة، وحينما وصلتُها، رأيت نور قنديل الزيت مضاءً، كان **تشن لاو وو** يجلس بصحبة بضعة رجال، ينتظرون عودتي بوجوه متجهّمة. ظننت أن **تسوي دا جياو** سبقني إلى هنا، ووشى بي. ولكن الحقيقة كانت أنه لم يأتِ إلى هنا قط.

«نحن نُعاملك بشكل جيد، فماذا تنوي أن تفعل؟». قال لي أحد الرجال والغضب يتصاعد منه.

قلت: «لا، لم أهرب». وفجأة انهمر المطر في الخارج بغزارة، فكان يجب أن أرفع صوتي لكي يُسمع كلامي.

«لماذا ذهبتَ وماذا كنت تفعل؟». سألني الرجل.

قلت لهم الحقيقة. رمقني **تشين لاو وو** بنظرة حائرة، ثم طلب مني أن أرافقه لكي يرى تماثيل الصلصال التي اشتريتُها، كان يبدو أنه لا يصدق تماماً ما قلته. ارتدوا كلهم معاطفهم المطرية العازلة، وأخذ **تشن لاو وو** كشّافاً كبيراً يعمل بأربع بطاريات. سرتُ معهم حتى وصلنا تحت الجرف، ورفعت لهم الشوال، سلط **تشن لاو وو** نور الكشاف على الأشياء ليراها بوضوح، ثم رفع ذقنه، وكأنه يريد أن يقول لي لماذا اشتريت هذه الأشياء اللعينة؟ ولكنه استبدل ذلك السؤال بقول: «لملم بسرعة هذه الأشياء، وعُد فوراً». ثم خلع

معطفه ورماه إليّ. قلت له بامتنان وعرفان:

«مستحيل أن أهرب».

فقال لي: «من يخشى هروبك، أنا أخاف من أن تُقدم على الانتحار». وبعدما انتهى من كلامه، حشر نفسه تحت معطف رجل آخر، ومضى.

أمسكتُ بالمعطف دون أن ارتديه، ولم أعبأ بهتون المطر البارد الذي أخذ يتساقط فوق رأسي بانتشاء، ثمّ قلتُ بزهو: «لن أموت، ما دامت هناك أشياء بهذا اللطف في العالم!».

الفصل الثامن

مرّ أكثر من سبعمئة يوم في إصلاحية السُخرة.

تمّ إبلاغي بأن: «تعالج القضايا التاريخية الحرجة، وفقاً لمعالجة التناقضات بين صفوف الشعب»((27)). وفي نفس الوقت «لن تُلبَس قلنسوة العار، ستعود إلى المصنع للعمل، وستُخفف العقوبة عنك ويُوضع سلوكك تحت المراقبة». لا تضحك من تناقض المفاهيم، فقد كان ذلك المكان متواضعاً جداً! وإن معالجة الأمر بهذا الشكل شيء في منتهى السخاء. توصّلت لكل ذلك بمجهودي؛ فمنذ أن عرفتُ طريق تماثيل الصلصال وفن مقصوصات الورق بجبل **تشينغ شه**، تجوّلت في كلّ مناطق الجبل المحيطة، وتعرفت خلال عامين على مجموعة من نحّاتي الحجر الذين توارثوا عن أجدادهم نحت تماثيل بوذا بطراز اختصّت به أسرة **وي الجنوبية**. ولكنهم بعد «الثورة الثقافية» توقفوا عن النحت، واعتمدوا على تكسير الحجارة لكسب قوت يومهم. فهم لا يعرفون قراءة رموز كثيرة ((28))، ولكن حسّهم الفني عال جداً، وهم كذلك يتّسمون بالوفاء وبروح الإخاء، فيكفي أن تُبدي إعجابك بفنهم، ليفتحوا لكَ قلوبهم. أخذوني إلى الوادي، وأخرجوا لي خلسة تماثيل بوذا التي صنعوها لأراها. كانت هذه التماثيل في نفس مستوى أعمال **مايكل أنجلو، وردان، وهنري مور**. كانوا يريدون أن يتنازلون لي عنها، ولكن للأسف كان مستحيلاً عليّ أن آخذها معي، فلستُ أملك مكاناً ما لحفظها ، وكان مصيرها هو إعادة دفنها مرّة أخرى.

أصبح هؤلاء الفنانون الشعبيون العظماء مصدراً لإلهامي، فامتلكت مفتاحاً

سحرياً لفهم الفنّ، وتمخّضت في عقلي أفكار جديدة كلياً، تطلعتُ إلى التعبير عنها. نعم... صحيح، كان علي أن أغادر جبل **تشينغ شه** في أسرع وقت، لأعود إلى مصنع الخزف، ولأنفرد بإنتاج أطباق مرسومة أكثر تميّزاً في العصر الحديث!

سأدفع عُمري مقابل «إخراجها للنور!»، كنت أقضّي النهار أجمع الحجارة في الجبل، وفي المساء أعمل على مطحنة الحجارة، أدير الحجر المدبب للمطحنة، لأطحن مسحوق الخزف. كُنت أُنهِك نفسي يومياً في العمل، حتى أشعر وكأن هيكلي العظمي سيتفكّك، وقد فشل الجميع في إقناعي بالتراجع عمّا أفعله، بل واتهموني بالحماقة.

يوم مغادرتي لجبل **تشينغ شه**، كتب لي **تشن لاو وو** شهادة تسجيل عودة إلى المصنع. ولكنها كانت مختلفة عن ذلك «الإخطار» الذي سلّمَته لي الكلية في ذلك العام؛ كانت تلك الورقة قاتمة، أما هذه الورقة فهي شفافة، وفي هذه اللحظة صار قلبي شفافاً مثلها، لدرجة أن رؤيته من خارج صدري باتت ممكنة.

قال **تشن لاو وو**: «سأُوصلك». وحمل لي حاجياتي.

لم أُطِق فكرة الرحيل من هنا، فمنذ ذلك اليوم الذي ابتعثُ فيه تماثيل الصلصال، أصبح **تشن لاو وو** لا يعترض على ذهابي إلى أي مكان. ورغم أنه كان لا يعرف تماماً ما الذي سأفعله، إلا أنه لم يعُد يبالي أو يسأل، وخاصة عندما رأى أن قلبي قد توهّج فرحاً.

أوصلني إلى ممرّ الجبل، بمسافة تجاوزت عشرين متراً، على الرغم من أنه

ظل صامتاً ولم يقُل شيئاً طوال الطريق، إلا أن حنجرته كانت تصدر أصوات نحنحات متقطعة، وكأن شيئاً ما خُشر في داخلها. هل يُعقل أنه يجدُ صعوبة في التعبير عن مشاعره إلى هذا الحدّ؟ عندما وصلنا إلى قمّة التل، أعطاني أمتعتي وقال لي: «يا رفيق، سأتوقف هنا! وكما أتفقنا، أنتَ ستمضي في طريقك، وأنا سأُدير ظهري وأمشي في طريقي، دون أن يلتفت أحدنا لينظر إلى الآخر». عِندما سمعت هذا الكلام، فاضت مشاعري وأردت أن أعانقه. ولكنه كان في حالة غريبة استثنائية؛ كان ساكناً كالصخر، فأجبرتني هيئته على التحكم بذاتي وضبطها.

أومأتُ برأسي، موافقاً على تنفيذ ما قاله.

استدار فجأة كلّ منا ومضى في طريقه. مضيت قُدماً، وأجبرت نفسي على عدم الالتفات إلى الوراء، كنت أسير نازلاً من التلّ. ولكن عندما وصلت إلى منعطف الطريق الجبلي -بمجرد أن أنعطفُ إليه يظهر الجبل أمامي- لم أتمالك نفسي، فالتفتُّ إلى الخلف، ولمحته لا يزال واقفاً في مكانه، فهو لم يتحرّك من الأصل. كان مثل خروف جبلي، لا يتزحزح من فوق التلّ. اجتاح قلبي سيل من المشاعر الفياضة، فصحت بعلو صوتي:

« تشن... لاو... وو... تشن... لاو... وو».

لم يصِل صوتي إليه. لأن التلّ كان شاهق الارتفاع.

لوّحتُ له بحماسة. رآني، لكنّه أشاح بوجهه ومضى. سالت دموعي، فتركتُها تسيل. كنت تارة أمشي، وأخرى أترك دموعي تنساب. لا أدري إن كان هذا إعلاناً عن الفرح، أم نوعاً من الاستمتاع بحالتي. ظللت أبكي حتى جفت

دموعي، وتيبّست وجنتاي، فمسحت وجهي.

ها أنا هنا مرّة أخرى، أحمل أمتعتي وأقف عند مدخل المصنع وأجول بناظري إلى داخله. ولكن هناك فارق كبير بين هذه المرّة والمرة الأولى، فهذه المرّة هناك مشاعر أنتَ ذاهب لتتذوّقها وتجرّبها بإرادتك بكلّ ما تحمله من تضارب. عندما دخلت إلى الباحة الخلفية جال بخاطري، بالتأكيد أن تلك المرأة لم تعُد تسكن هنا. فوجئت بعمودين خشبيين كبيرين على شكل علامة (X) مثبتين على باب الغرفة، أشبه بتلك العلامة التي شُطب بها على اسمي في الملصقات الجدارية في ذلك العام.

عندما وصلت إلى المكتب، عرفت أن **لوه جيا جو** قد نُقل إلى لجنة الحزب في المحافظة وصار نائب مدير اللجنة الثورية. وحلّ محلّه شاب جديد لتنفيذ السياسة. كان يعرف تماماً من أكون، حدجني بنظرة متفحّصة، وأخذ معه شاباً ليكسرا لي باب الغرفة، كانت الأشياء في داخلها مغطاة بطبقات من التراب الرماديّ داكن اللون.

بعد قليل، حمل هذا الشاب حزمة مربوطة من بقايا ومخلّفات أعطاني إياها قائلاً:

«أخذت **جون جون كلّ** حاجيّاتها، وقالت إن هذه الأشياء لكَ. لا توجد قائمة بالأشياء التي أخذَتها بالضبط. يمكنك أن تراها بنفسك لو أردتَ، بوسعك أن تتفقّدها».

أومأتُ برأسي بابتسامة مصطنعة. فمن يرغب في تفقد الألم؟

أول ما فككتُ حبل هذه الحزمة، وجدت من بينها: بعض المراجع، وخشبة

خلط الألوان، ومجموعة فُرش، وبضعة ملابس متهرّئة ملطخة بالألوان، وفردة قفّاز، ووسادة مهلهلة... كنتُ قد نسيت هذه الأشياء منذ زمن مديد، ولكنني تذكرتُها بمجرد أن وقعَت عيني عليها. لمعت عيناي فجأة؛ رأيت طبقاً من الخزف! وعندما مسحتُ الغبار المتراكم عليه، أخذ قلبي يدقّ تماماً مثل الطبول. كان ذلك الطبق هو الذي صنعته يوم زفافنا، والمرسوم عليه «القرد والبقرة»؛ ذلك القرد المشاغب الذي يركب فوق ظهر البقرة الوردية، ويتوّجها بإكليل من الزهور. ولأنه يمازح البقرة بلؤم، فهو يرفع قدميه متعمداً، وكأنه سيقفز من على ظهرها. هذا الطبق، وهذه الرسمة، جعلاني أشعر برقّة وحنان الماضي الذي يشبه نسمات دافئة، وكذلك أحسّ بمرور السنوات القاسية الوحشية التي تشبه صقيع الجليد وهي تختلج في صدري. كم راودتني رغبة ملحة لأن أستعرض الأمس، وأول الأمس، وأول أول الأمس أمام عيني. وفجأة تساءلتُ لماذا لم تأخذ **جون جون** هذا الطبق معها حين أخذت أغراضها؟ والإجابة ببساطة كانت؛ لأن هذا الطبق يرمز إلى وجودنا معاً. عندما قادني التفكير إلى هنا، تبدّدت الغمامة التي حجبت عقلي، وأدركتُ كلّ شيء. فاكتسحت قلبي عاصفة رملية باردة.

التقيت أنا **وجون جون** من خلال زوج عمتها. وحينها قلت لها:

«أنا لم أخدعكِ. عندما قبض علينا الحرس الأحمر في ذلك اليوم، اعترفتُ أنني قد خدعتُك؛ لأنني خفتُ عليكِ من التعذيب. فأنا وحتى يومنا هذا، لا أعلم من أين ولا كيف جاءت تلك الأشياء المتعلقة بعام 1957... بالتأكيد أنكِ ظننتِ أنني خدعتُك بالفعل، فاحترقت روحك ألماً، أليس كذلك؟».

لم أتوقع منها أن تردّ على مثل هذا الكلام المفصليّ بهذا البرود واللامبالاة:

«لا يهمني كلّ ذلك. لا جدوى منه الآن».

«لا جدوى منه؟ ماذا تقصدين... ».

فقالت: «أقصد كلّ شيء».

«ولكنني لا أفهم قصدكِ».

قالت: «كان يجب علي أن أكون واقعية».

عكسَت هذه الجملة بشكل تامّ وحقيقي حالتها الراهنة. وفجأة تلاشى شعوري الدائم بأن عينيها ذواتي الأهداب الطويلة ساحرتان، وكأنهما تحولتا إلى مستنقعي مياه راكدة، وبدت أهدابها كالعشب الذابل. لم تكن هيئتها ضبابية غامضة كما رأيتها في المرة الأولى، فقد غدا كلّ شيء واضحاً.

ربما تودّ أن تسألني الآن، أين ذهبت الفتاة ذات المشاعر المرهفة الشبيهة بجمال القصائد وروح الفن؟ مهلاً! إن الحياة هي النحات الأعظم، فليس بمقدورها أن تغير شكل الإنسان وحسب، ولكنها تملك السلطة لتغيير قلبه الذي يفشل أي نحات في تغييره. عندما يصير المرء إنساناً واقعياً، يستحيل أن يعود كما كان. أصبحنا أنا وهي نشبه الزيت والماء، مستحيل أن نمتزج سوياً. أصلاً كان بنيّتي أن أبذل قصارى جهدي مرة أخرى، ولكنها حين اجهضت جنيني وعاد جوفها غير منتفخ... قمتُ بعمل اجراءات الطلاق...

في ذلك اليوم، حملتُ شهادة الطلاق، والطبق الخزفي وذهبتُ إلى تلك الأرض العشبية التي تطلّ عليها النافذة الخلفية لغرفتي، وحفرت حفرة بجذع شجرة، ووضعتُ الطبق الخزفي وغطّيت به شهادة الطلاق، ومن ثم ردمتُهما بالطين. ووفقاً لما قالته **جون جون** في الماضي، فقد جمعتُ باقة

من أزهار الذرة الذهبية ووضعتُها فوق الحفرة. وتماماً في تلك اللحظة نزلَت على قلبي سكينة وفتور وتبلّد للمشاعر لم أعهدها من قبل، وومضَت في ذهني فكرة غريبة، أنه بعد مئات أو ربما آلاف السنين، سيكتشف علماء الأثار هذا الطبق الجميل، أما شهادة الطلاق التي تغطّيه فستكون آنذاك قد تحلّلت، وأنهم مهما بحثوا لن يتوصّلوا أبداً إلى قصة ذلك الطبق...

ومن ثم ضرَبت قلبي موجة من الارتباك.

مساء ذلك اليوم، ذهبتُ لرؤية **لوه تشانغ جوي**، سمعت أنه قد شُلّ من فترة، وربما لن يعيش طويلاً. أتذكر له دائماً هذا الموقف؛ عندما لوّح بالكتاب الأحمر، وأخرجني من داخل الفرن.

كانت حالة **لوه تشانغ جوي** مزرية. وكان صوت أنفاسه أعلى من صوتي، عيناه كانتا زائغتين، ووجهه شائخاً مترهلاً، وعظامه بارزة، تماماً مثل شاطئ ذلك النهر وقت انخفاض المدّ، الذي كنت أراه من نافذة غرفتي. كنت أشعر وكأنه سينصهر شيئاً فشيئاً في سريره، وكأن جسده المنحني ثقيلَ الحركة والرقيقَ هذا لن يستقيم مرة أخرى أبداً.

عندما رآني، تأثّر كثيراً حتى اتسعت فتحتا منخريه، ثم قال جملة طالما تردّد في قولها:

« أنا...أنا أقدّر مهارتك اليدوية! بوجودك... يستحيل أن تنقطع صناعة الخزف. وقط، لو كان اسم عائلتك **لوه**، لكان هذا أفضل...».

فجأة تذكّرت كلاماً ظل كامناً لوقت طويل بين ثنايا قلبي، فقلت:

«يا مُعلّم، لماذا كلّ ما تشكّله بيدك ينبض بالروح، بغض النظر عن كونه

قنّينة، جرّة أو حتى طبقاً صغيراً؟».

عندما سمع ما قلته، تحرّك جسده المشلول، وأراد أن يعتدل في جلسته. من الواضح أن كلامي مسّ أعماق قلبه، بدا وكأن طاقة كهربية قد سرت في جسده في ومضة عين. طلب مني أن أحمل قنينة صغيرة مُجسمة من على الطاولة وأتأملها جيداً. نظرت إليها وأخذت أقلّبها متفحصاً، فسألني إن كنت لاحظت شيئاً ما، فقلت:

«كأنّ عليها بصماتك».

فرح لدرجة أن عينيه التمعتا وامِضتين:

«الحيوية تكمن في اليدين. تذكّر! فعند تشكيل الخزف لا تصقله بشكل تام. فهذا ما يسمى **بالعيون**. فعندما ترسم شخصاً ،ألا يكون بلا روح عندما يكون بلا عينين؟ وتدبّ فيه الحياة بمجرد أن تصير له عينان؟».

فجأة تذكرت التماثيل وأوعية الطهي الفخارية، والجرار بأشكالها المتعرجة الملتوية التي تفيض جمالاً وسحراً، وتذكرت السيدة **خوانغ** وهي تقص الورق على شكل خطوط مجعدة غير سوية وكذلك فخمة، أليس صحيحاً أن سرّ الفن يكمن في كلّ ذلك؟ والآن، قد تلهفت لمعرفة مفتاح حلّ ذلك السرّ، والذي هو بالتأكيد في يد العجوز **لوه**:

«هل هناك شيء آخر انتبه إليه متعلّق بما يسمى العيون».

أطرق **لوه تشانغ جوي** مفكّراً لوهلة، ثم عادت نظراته تدريجاً إلى عينيه المعتمتين. وقال: «سأخبرك في المرة القادمة!»، ثم طلب من الفتاة التي ترعاه -لا أعرف إن كانت ابنته أم قريبته- أن تحضر شيئيين، الأول كانت

أداة مصنوعة من أمعاء الخنزير وموصولة بأنبوبة كغطاء قلم نحاسي مدبب، والثاني كان علبة مربعة من الخشب الأحمر القديم. قال: «الأداة المصنوعة من أمعاء الخنزير هذه... تستخدم في الرسم بألوان البودرة، عملية جداً، استخدمتها لمدة ثلاثين عاماً، فلن احتاجها بعد ذلك، فهي لكَ الآن... وهذه العلبة، افتحها بنفسك...». وبعدما فتحتها، تنهّد بقوة.

كان بداخل العلبة أحجار **ماجيانغ**((29)). خامتها تشبه حجر اليشم، ولكن عندما دقّقت النظر، وجدتها خزفاً. كانت الأزهار المنقوشة فوقها كلها محفورة، في منتهى الحيوية، كانت حقاً قطعة فنية نادرة من الخزف. قال **لوه تشانغ جوي**:

«احتفظ بهذه الأشياء جيداً. لا تسمح للآخرين أن يعتبروها من «الأشياء الأربعة القديمة» فيحطمونها. هذه أشياء ورثناها أباً عن جدّ. أنتَ تعلم قيمتها، فلتأخذها! أنا رجل عجوز لا أملك شيئاً آخر يمكنني أن أعطيه لكَ...».

تأثرتُ إلى حدّ أن الكلام حُبس بداخلي.

بعد ذلك ذكرتُ في حديثي **تسوي دا جياو**، فقال **لوه تشانغ جوي**:

«لقد نال جزاءه. إذ سقط إلى الوادي من طريق جبلي واسع للغاية، ولم يكن به جليد حتى، وهو الذي يملك خبرة عشرين عاماً في قيادة العربات... ومن حسن الحظّ أنه كان وحيداً، لم يترك وراءه أبناء ولا زوجة. ولكنه لم يكن مثل **لوه جيا جو**، فهو طائش وحسب، ولم يكن شريراً وشرساً بهذا الشكل من قبل، لا أدري كيف تغيرت شخصيته هكذا في تلك الفترة».

قلت: «مستحيل أن أسامحه على دهسه **فاحم**».

«هل تقصد ذلك الكلب؟ لا تظلمه... فهو لم يدهس كلبك... قال لي ذلك بلسانه».

«قد خدعك إذن. لأنني حينها كنت معه في نفس العربة».

«كلا... هو أخبرني حينها... أنه أدار العربة، أراد أن يجعلها تجتازه، ولكنه كان قريباً جداً منه، ولم يستطع أن يغير مساره، فدهسه على أحد أطرافه».

«حقاً؟»، صرخت. كنت غير مصدّق أن **تسوي دا جياو** لم يدهس **فاحم**، لا يمكن أنه لم يفعل ذلك! ولكن فجأة استرجعَت ذاكرتي مشهد اندفاع العربة بجنون صوب **فاحم**، وترنّحها بعنف. «أهذا حقيقيّ؟ **فاحم** لا يزال حياً؟». لم أجرؤ على تصديق ذلك. إن الإفراط في الأمل مخيف.

«نعم حقيقي، إنه لا يزال على قيد الحياة. لقد رأيته بنفسي... فبعدما غادرتَ أنتَ، ظلّ يأتي لأيام متتالية، يقفُ أمام باب غرفتك وينبح، كان أعرج الساق...».

فجأة وكأن نوراً غمر غرفة العجوز **لوه**. فمَن... مَن عليّ أن أشكره الآن؟ إن الحياة مذهلة حقاً. إنها لا تخيّب أملك، فهي تمنحُك دائماً حيّزاً للتنفس، ونقاط تحوّل، وكذلك تعوّضك، وتمدّك بالأمل في الغد، وبعد الغد، وبمستقبل واسع ممتدّ، وكذلك تبسط أمام قدميك الدروب، في عزّ تلك اللحظات الضبابية الغامضة...

شعرتُ وكأن شيئاً رُدّ إلى قلبي، وبالتأكيد فأنه عاد لينبض بالروح مجدّداً.

من ثم، بدأتُ رحلتي في البحث عن **فاحم** في كلّ مكان، كنت أسأل كلّ من أصادفه، كانت الأقوال عنه متضاربة، فهناك من قالوا إنهم رأوه، وهناك

من قالوا إنهم لم يروه قطّ، بعد ذلك ظهر خيط يؤدي للعثور عليه؛ قال بائع سجائر متجوّل يحمل بضاعته في دلوين متدليين من عصا يحملها على كتفيه، إنه قبل مدة قصيرة، على طريق قرية تبعد عن الجزء الغربي لمركز المحافظة بأكثر من عشرين ميلاً، لمح كلباً أسود نحيفاً مستلقياً على جانب الطريق، كان يبدو عليه أنه جائع ومنهك القوى، فأشفق عليه بائع السجائر وأعطاه قطعةٍ من الكعك، فتناولها الكلب، وتبع البائع ومشى وراءه جزءاً من الطريق، ثم بعد ذلك فارقه ومضى. قال ذلك الرجل أيضاً إن الكلب كان يعرج. عندما عرفت بهذا الخبر، امتلأ قلبي باليقين.

كلّ يوم عطلة، كنت أشتري قطعة من اللحم، أعلّقها في حبل رفيع، ثم أذهب باحثاً عن **فاحم** في كلّ أرجاء مركز المحافظة -سواء بعيدة كانت أم قريبة- أبحث عنه في الحقول، والطرقات الكبيرة، والبلاد، والقرى. وكنتُ كلما بحثتُ تنامى في قلبي شعور بمدى ضخامة هذا العالم، لدرجة أنه إذا ضاع منك أي شيء فيه، فلن تجده بسهولة.

كان يوم أحد، عندما أخذتُ قطعة لحم، ومشيت منذ بزوغ الفجر حتى منتصف الظهيرة، ولكنني لم أرَ أيّ أثر **لفاحم**. وفي الأخير تعبت، وصرت معتمداً على عزيمتي لا على مشاعري في البحث. قطعاً لم يكن التخلي عن البحث عن **فاحم** فكرة مطروحة أو واردة بالنسبة إلي. فأنا أؤمن أنه في البداية، لا بدّ وأن يكون قد بحث عني بنفس هذه الروح. عندما دخلت إلى مدخل بلدة، شعرتُ وكأن قدميّ لم تعودا تحملانني بعدُ، فقدت توازني ولم أعرف أين أنا. اشتريت عصيدة رزّ من كشك صغير لبيع الطعام على جانب الطريق، ومددتُ قدميّ لأستريح. فجأة سمعت صوت أطفال يصيحون:

«اضربوه، اضربوه، اضربوا هذا الكلب»، وعندما مددت بصري، وجدت مجموعة من الأطفال المشاغبين يحملون فروعاً من شجر الصفصاف ويضربون بها كلباً. ولكن الكلب كان هامداً لا يتحرك ولا يقاوم ضرباتهم، وكان ينزوي إلى جانب الجدار فقط، كان مُشرفاً على الموت تماماً. اللعنة! إنه كلبُ أسود اللون.

« **فاحم** كلبي؟». كاد قلبي أن يقفز خارج صدري، وفوراً هُرعت راكضاً صوبه.

ظننته **فاحم** للوهلة الأولى! ولكن عندما عاودتُ النظر مجدداً، لم يبدُ عليه وكأنه هو. فرغم أنه كلب أسود، إلا أن شعره كان أقصر من شعر **فاحم**، وجسده نحيفاً مثل عود الفحم، مغطّى بالغبار، وغاية في القذارة. يبدو عليه أنه لم تعُد لديه ولو قليل من الطاقة لمقاومة هجمات الأطفال عليه، فاستسلم لهم مستلقياً، مغمض العينين.

Telegram:@mbooks90

«**فاحم**»، جرّبت أن أناديه.

استجاب لصوتي ونهض من على الأرض، فانتفض الأطفال مذعورين متراجعين بضع خطوات إلى الوراء. كان هزيلاً، مال إلى الأمام، متحاملاً بجسده الضعيف على أقدامه المرتعشة المجردة من الشعر. رفع رأسه النحيف الصغير، وحملق بي بعينيه الكبيرتين.

قلت له بنبرة صوت متغيرة: «ارفع يدك اليمنى يا **فاحم**».

وبصعوبة وارتجاف، مدّ إليّ بيده اليمنى الملطّخة بالطين.

فاحم... **فاحم** كلبي! نعم إنه **فاحم** كلبي. فتحت ذراعيّ واحتضنته،

ضممته إلى صدري بقوّة. كان جسده يرتجف بعنف، حتى شعرت بجسدي أيضاً يرتجف معه. لكن في الواقع فأنا كنت أيضاً أرتجف مثله. شعرتُ أن رأسه أصطدم في صدري بقوة وحميمة وتأثُر... ماذا أقول أكثر من ذلك؟ شعرت أنني أحتضن العالم من جديد، أضم إلى صدري الحياة بأسرها...

لا داعي لقول أكثر من ذلك، فأنا يستحيل أن أتركه يضيع منّي مرة أخرى، سأصحبه معيَ أينما ذهبت. فمن أجله صرت أركب في مقصورة الدرجة الأولى ذات المقاعد المريحة، لأن التفتيش فيها ليس صارماً، وهذا أضمن. إنه لبيب، لن يُصدر صوتاً، مستحيل أن يفعل. خشيت أن أفارقه فيكون هذا فراقاً أبدياً... بدا عليه التقدم في العمر في السنوات الأخيرة، لم يعُد يعدو في البراري، وصار قليلاً ما يأكل، كما أن شعره الجميل لم يعُد ينمو كما في السابق. لقد غدا يربض إلى جواري طوال اليوم، وعندما كان يسمع صوت عربة تتحرّك في الفناء، يرتبك في الحال، وتجحظ عيناه، ويكشر عن أنيابه، ويقف كلّ شعر قفاه في الحال... آآآآه، انتهت الحكاية هنا، حكاية ما أحمله داخل صندوق الورق المقوّى، آملُ على الأرجح أنكَ قد فهمت الآن!».

بعد أن تكلّم، ذلك الفنان «المغمور» والمدعو **خوا شيا يو**، عن تجربته الغريبة، اختنق حلقي بأمواج من المشاعر الجياشة المتصاعدة. رفعت رأسي ونظرت إلى الصندوق، كان صامتاً بلا حركة أو صوت، ولكن تملكني إيمان عميق، أن ما بداخله قصة بائسة مؤلمة، وكذلك روح مخلصة وجزعة. فحديث **خوا شيا يو** عن ماضيه، دفعني إلى الفضول لمعرفه حاضره:

«أما زلت تصنع الأطباق الخزفية؟».

أومأ **خوا شيا يو** مبتسماً، ولكن تلك الابتسامة بدت وكأنها سخرية من

نفسه. سألته عن سرّ هذه الابتسامة الغامضة التي يصعب تفسيرها. فضحك مجدداً، وقال:

«سوف تسخر مني إن حكيت لكَ! ففور عودتي إلى المصنع، تمّ اختياري للذهاب إلى الورشة الرئيسية لصناعة الأطباق الخزفية، ولكن لم يمرّ نصف شهر حتى تغير الوضع. والسبب كان تافهاً؛ فذات يوم، كان قد توقف هطول المطر فيه لتوه، وبينما كنت أمشي في طريق خارج المدينة، بدا كلّ شيء حولي وكأنه خرج من الماء لساعته، كان صحواً، نضراً، مُنعشاً ولامعاً، في تلك اللحظة ظهرت أمامي قطعة بيضاء، نقية وصافية البياض، جعلت كلّ الألوان المحيطة تبرز فجأة، كموسيقى بيانو أثناء عرض للعزف، تعلو نغمتها إلى الدرجة الثامنة. أشرق قلبي كله، حتى فضتُ فرحاً وحماسة! عندما وصل هذا الشيء الأبيض أمامي، وجدته أنه القميص الذي يرتديه **لوه جيا جو**. لم أره منذ ثلاثة سنوات تقريباً. في تلك اللحظة، لا أدري لماذا، بدا وكأنني نسيت كلّ شيء، ربما كان بفعل تأثير المنظر الصحو والمنعش الذي خلفه المطر، وكذلك اللون الأبيض النقي. سألني باهتمام عن أحوالي، فقلت إنني أصنع الأطباق الخزفية المزخرفة، بل أضفت قائلاً إن لدي العديد من الأفكار الجديدة، وإنني حتماً سأصنع أطباقاً خزفية بمستوى فنّي أعلى. من يتوقع أنه في اليوم التالي، نُقلتُ إلى أفران حرق الخزف، دون إبداء أي سبب لنقلي. ألستُ أبلهَ من وجهة نظرك؟».

«كلا، أنت على الأرجح من الناس الذين تخدعهم أنفسهم».

«يا إلهي، هذا صحيح، فأنا تماماً كما قلتَ. ولكن على كلّ حال، لا أعتقد أنني خسرت أي شيء، بل على العكس تعلّمت الكثير من قوانين حرق

الخزف في الأفران. يقول عاملو الأفران: «ثلاثون بالمئة يعتمد على الصنعة، وسبعون بالمئة يعتمد على الحرق»، «من لا يفهم حرق الخزف، لا يفهم الخزف». هذا بالضبط ما حدث، صرت أتحكم أكثر في نتائج الأطباق الخزفية. أليس غريباً من وجهة نظرك، أن الشخص الذي تسبب لي بالضرر كان في نفس الوقت يساعدني، فمن رأيك لماذا حدث ذلك؟».

تعلّقت عيناي في الفراغ، وكأنما قد جالت في خاطري العديد من الأفكار الجديدة التي لم تتكون ملامحها بعد، فعجز فمي عن النطق بها؛ فهذا الرجل الغريب جعل عجلة تفكيري تدور فاقدة السيطرة... ولكنني عجزتُ عن إجابته، ولم أملك سوى أن أرد عليه بسؤال، فسألته: «فما الذي كان يقصده **لوه تشانغ جوي** بالعيون عندما حدّثك عن الخزف؟».

«لا شيء. ففي الليلة التي ذهبتُ مجدداً لرؤيته فيها، كان قد توفي، وكأنه قرر أن يأخذ معه سرّ مهارته الفريدة...». ثم أردف **خوا شيا يو** متنهداً: «كان بإمكانه أن يورثك كل كنوز الأجداد، ولكنه من المستحيل أن يورثك سرّ مهارته اليدوية. فإن هذا الشكل من الحماية، سيجعلنا نسير بنفس خطى السابقين، وأيضاً سيُضفي نكهة فريدة وخاصة لفنّنا، والأكثر من ذلك أن يكمن به لغزٌ يستعصي حلّه إلى الأبد! لكن ما قاله لي العجوز **لوه** كان مفيداً جدّاً لي، مما دفعني إلى الارتقاء إلى مستوى أعلى من الفن. ولو كان بوسعي العودة إلى ورش صنع الأطباق الخزفية في المستقبل... فسأكون كلي ثقة بنفسي، هل تصدق ذلك؟». كانت نظرات عينيه كنجوم السَحَر تبعثان بريقاً متوهجاً.

كان القطار يخترق عتمة الليل مثل الطلقة، منطلقاً تحت أفق يمطر ثلجاً

وفوق أرضٍ مكسوّة بالجليد. كان الركاب جميعاً يغطّون في النوم، وكانت ممرات القطار خاوية من أي مخلوق. وكان القطار حين يصطدم بمفاصل القضبان، يرتجّ بعنف، فيصدر صوتاً له إيقاع يصمّ الأذان، وأصلاً فأن هذا الصوت كان موجوداً منذ وقت طويل، ولكنني لم أكن أسمعه، لدرجة أنني نسيت حتى أين أنا.

«هل غلبك النعاس؟»، قال **خوا شيا يو**، ثم نظر إلى ساعته القديمة ذات الزجاج المكسور، والتي اصفر سوارها، «ياه إنها الخامسة والنصف، أوشك الفجر على البزوغ، سأصل إلى محطتي خلال أقل من ساعة، حقّاً أعتذر منك، لقد أزعجتُك لليلة كاملة».

«لا لا، ولكنك لم تنتهِ من رواية حكايتك بعد. فأنت لم تقُل من هو الذي لفّق لكَ كلّ الأمور التعيسة التي مررت بها، والمتعلقة بعام 1957؟».

«لا أحد».

«هل كان افتراءً من **لوه جيا جو** في ذاك الوقت».

« لا، إنه فقط قد استغل بعض المعلومات القديمة، والتي كانت كلها موجودة في ملفي».

«ولكن هذا غريب. ما دام لم يلفّق أحدٌ لك شيئاً، فكيف جاءت هذه البيانات إلى ملفك؟ فلقد تشتت تفكيري!».

تردّد **خوا شيا يو** قليلاً، ولكنه في النهاية كشف عن حقيقة الأمر:

«إليك ما حدث... ركبتُ نفس القطار هذا، عندما أتيت إلى **دونغ بي** قبل شهر. وفي محطّة **تشن يانغ** سمعتُ شخصاً ينادي باسمي. كانت امرأة، إنها

يانغ مي مي، لم أذكر لكَ اسمها! إنها زميلتي المقرّبة في الكلية التي أشرت إليها في بداية الحكاية، وقد تزوجت الآن، ومن مظهرها وحيوتها تعرف أنها تعيش في مستوى ممتاز... لم تقُل لي أين تعمل هي! ولكنها قالت إنها مسافرة في رحلة عمل، ولم تتوقع قطّ أن تلتقي بي. وبما أنها لم ترني منذ سنوات طوال. فقد قرأتُ من الذهول الذي رُسم على ملامحها، أنني قد تغيّرتُ كثيراً. ولكنها بعد محادثة قصيرة، سحبتني بسرعة إلى مكان هادئ وسألتني ما إذا كنتُ قد عانيت في مطلع فترة (الثورة الثقافية). وبنبرة صادقة ومفعمة بالندم أخبرتني أنه ذات لقاء لنا في المعبد السماوي((30))، أفصحتُ لها فيه عن مدى انزعاجي وشكوكي تجاه حملة مناهضة اليمينيين، فدبّ في قلبها الرعب بعد سماعها لكلامي، وأقلقها أن هذه الأفكار المخيفة قد تُعيقني عن التقدّم إلى الأمام وتدمّر لي مستقبلي، فقدّمَت عنّي تقريراً مفصلاً إلى فرع الحزب المحلّي، بكلّ سذاجة وسلامة نيّة.

وكانت النتيجة أن كلّ ما ذكرَته في التقرير قد سُجّل وحُفظ في ملف. وإبّان الثورة الثقافية، طلب منها مصنع الخزف نقل بعض الأشخاص وتدقيق البيانات، فأدركَت أنني حتماً سأتعرض لكارثة لما فعلَته.

حينها اضطربَت وشعرَت بالذنب لما فعلَته، ولكنها لم تجرؤ على كتابة رسالة تسألني فيها. قالت لي: «قطعاً أنني ألحقت بكَ الضرر بسبب غبائي». عندما سمعتُ ما قالَته شعرتُ وكأنني ابتلعتُ صفيحة ماء مثلّج، تجمّدتُ كلياً بداية من قلبي إلى أوصالي. لم أقوَ على فعل أي شيء سوى أن أبتسم ابتسامة صفراء ومُصطنَعة. قطعاً أنها أضرّت بي! وفي الوقت نفسه شعرتُ بهول ما فعلَته؛ في ما بعد... كان ما عجزتُ عن فهمه، هو كيف استطاعت أن

تعبّر لي عن حبها دائماً، رغم وشايتها بي وإبلاغها عني؟ فكان الاحتمال الأكبر أنها كانت ستتزوّجني، لو كنتُ بقيتُ في الكلية. ولكن كيف كانت ستعيش معي مرتاحة الضمير؟ فهذا شيء يفوق كلّ تصور وخيال، بل و تقشعر له الأبدان...

«كان عليك أن تقول لها وقتها، إنها تسببت في ترك زوجتك لك وهدم بيتك، هي تقريباً دمّرتك. ثم تتركها لعذاب الضمير، هذا لو كان عندها ضمير». قلتُ له بانزعاج شديد.

فقال: «كل الناس عندها ضمير. ولكن هناك من يضعونه نُصب أعينهم، وهناك من يلغُونه كلياً عندما يتصرّفون. ولكن إفصاحها لي عن الأمر بصدق، يوحي بما لا يقبل الشك أن ضميرها هو الذي جعلها تندم!».

«وماذا قُلتَ لها؟».

«قلتُ لها إنني لم أعانِ، وكان كلّ شيء على ما يرام. ولكنني قلت لها إن ما قالَته صدمني».

«ولكن كيف صدّقت ذلك؟».

«لم تصدّقه بالطبع. ولكنها أيضاً لم تسألني عن أي شيء آخر. فضّلت تصديق أن ما أخبرتها به حقيقي.. أنتَ كاتب، وقطعاً بوسعك أن تفهم ما جال في نفسها في تلك اللحظة. فالكلام الذي قلتُه لها يمكنه أن يجعلها تعيش حياتها في راحة ضمير وسلام نفسي. فعندما توادّعنا، قامت بإعطائي أشياء كثيرة، لم أقوَ على رفضها؛ أعطتني حلوى، مأكولات خفيفة، وسجق، وفي أوج ربكتها كان من بين الأشياء التي وضعتها لي جوربٌ صوفي. في

النهاية قد عثرَت عندي على التحرّر من القيود... قيود الذات. كانت في قمة سعادتها، وصوتها كان متوهّجاً كطائر صغير حلق طليقاً خارج القفص... ماذا هل تضحك على سذاجتي؟ أم على كرمي الزائد؟ لا، فأنا قد دفعت ثمن هذا سنوات من الشقاء والأسى، فلماذا أثقل بهما روح شخص آخر... هي ليست إنسانة شريرة، فلأتركها تعِش بسعادة إذن».

تأثر قلبي بشدة. ورمقت ذلك الرجل اللطيف، التعيس أيضاً بنظرة شفقة، وقلتُ له بتأثّر: «انس ما مضى، لا شك أن المستقبل سيحمل لكَ أشياء أفضل بكثير من الحاضر». ولأنني لا ألتمس أملاً من الحياة، فقد قلتُ الجملة بشيء من الفتور، كلام كبير وكذلك فارغ، جملة دارجة لا يتعدى كونها كلاماً للمجاملة!

لكن إجابته أدهشتني:

«لا، لو متُّ اليوم، فعلي أن أعترف أنني ممتنّ جداً للحياة على كل ما منحَته لي. أما لو عشت إلى الغد، فسيكون دوري قد جاء لأردّ لها الجميل».

عندما سمعتُ ما قال، شعرت وكأنني سقطتُ في غفلة مني في حيّزٍ ساحر، مؤثر، وصادم. شعرت مجدداً بضربة موجة الحياة القوية، أنا ذلك الشخص الذي لطالما تعامل معها بخوف، وفتور وكنت في معزل عن البشر... صمتُّ، وعندما فاضت مشاعري وجاشت، كان من الأفضل أن أُبقيها حبيسة قلبي، وأتركها تدور هناك ببطء. كانت هذه هي اللحظة الأسعد على الإطلاق.

انعكس نور خافت على النافذة، فبانت ألوان الأشياء الموجودة خارجها. هل تأثّرتُ بإحساس هذا الفنان، لدرجة أنني بدأت أنا أيضاً ملاحظة الألوان

من حولي؟

وقف **خوا شيا يو**، ودسّ شيئاً في حقيبته قائلاً:

«يجب أن أنزل الآن... ف... فلنتوادع! أتمنّى أن تسير كلّ أمورك كما تشتهي».

«حسناً. أتمنّى لكَ...»، فكرت لوهلة، ثم قلت: «وأنا أتمنّى أن أرى أطباقك الفنية في أقربَ فرصة!».

لمعَت عيناه. فأيقنتُ أن هذه الأمنية أفضل من أية أمنية أخرى بالنسبة له. قال: «بالتأكيد... بالتأكيد». وكأنه يعبّر عن إيمانه بذلك.

أبطأ القطار سرعته.

أنزل **خوا شيا يو** صندوق الورق المقوّى من فوق الرفّ، ثمّ انحنى ووضع فمه في محاذاة الثقب الصغير الموجود في زاوية الصندوق، وقال: «هل نمت جيداً؟»، كانت طريقة كلامه وكأنّه يحدّث طفلاً. ثم أضاف: «لقد وصلنا، ولكن ما زال غير مسموح لكَ أن تصدر صوتاً!».

اشرأبتُ برقبتي قائلاً: «دعني ألقِ نظرة؟». كنت متشوّقاً جداً لرؤية هذا الكلب النادر.

اهتزّ القطار مرّة، وبعدها توقّف كلياً. ظهرَت من النافذة وسط ضباب البرد الظلالُ المشوشة للمحطّة ورصيفها، والسلالم الصغيرة والبوابات. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى ما بداخل الصندوق، ولكنني لم أر شيئاً؛ لأنه كان مظلماً جداً. ولكن تسربت إلى أنفي رائحة ثقيلة ومميزة لشعر الحيوانات.

«هل بوسعك مساعدتي؟ يجب أن أعبر بوابات تفتيش التذاكر بسلاسة، ولا يمكنني أن أقلب في الأشياء هناك، لو لم أحملها جيداً فسينكشف أمري. لا.. لا، لا داعي لأن توصلني إلى هناك، كلّ ما احتاجه منكَ هو هذا فقط»، ثم علّق حافظة اللوحات على ظهرة، وحمل الصندوق على كتفه الأيسر، وأمسك بحقيبة سفره المِمزّقة في يده اليمنى، وقال: «من فضلك ساعدني في إخراج التذكرة، هي بالجيب العلوي للمعطف... تمام... سأضعها في فمي، وسأعض عليها بأسناني، صح... صح...آه تماماً هكذا»، وبعد أن وضع التذكرة بين أسنانه، لم يعد باستطاعته الكلام، فابتسم إلي معبراً عن امتنانه لي.

عندما حانت لحظة نزوله من القطار، لم يكن هناك من سبيل لنا لكي نتبادل الحديث، فتبادلنا بالعيون كلّاً من الكلام، والأمنيات الطيبة، وتعبيرات عن وخزات في قلبينا نبتت بفعل الفراق. رأيته يسير مع جموع قليلة من الناس، حتى وصلوا إلى بوابة فحص التذاكر-قلقت لأجله- رأيت موظف التذاكر يلتقط التذكرة من فمه، ثم سأله شيئاً، فأومأ له برأسه، تقريباً قال له أن يترك الجزء السفلي للتذكرة، ليسترد قيمتها، وبعدها مرّ بسلام من البوابة. والآن صارت الحواجز تفصله عني. استدار، ثم مدّ رقبته، ونظر صوبي، فلوّحت له بيدي، ولكنه لم يرني على الأرجح، بسبب نور المقصورة المُطفأ، فاستدار ومضى في طريقه...

تتبعت بنظراتي هيئته المتلاشية تدريجياً وهو يحمل الصندوق، خيّم على قلبي شعور بالكآبة. ماذا بوسعي أن أتمنى له؟ وكيف سيكون شكل مستقبله؟ على كلّ حال... ففي السنوات الأخيرة، أثناء تجوالي وترحالي، التقيت بعدد غير قليل من الناس، مثله تماما، تجرعوا عذاب الحياة، ولكنك لن ترى أي أثر

لذلك العذاب منعكس على وجوههم. قد يحدثونك عن هول ما تعرّضوا له، فتجدُ نفسك عاجزاً عن تصديقه. هم... هم فعلاً أشبه بحقيبة سحرية عجيبة، تحشر الحياة فيها -تباعاً وبلا رحمة- قسوة، وجمود، وحدّة، ولكنها رغم كلّ ذلك لا تتمزق بتاتاً، ومهما كان ما تعرضوا له صعباً وقاسياً، يمتصّونه بصمت حتى يذيبونه بداخلهم في نهاية المطاف. فإن عيونهم، وقلوبهم بها إصرار وتمسّك بالحياة! إن الحياة لا تُفلت بسهولة يدَ من تصيبهم بالإحباط دائماً، ولكن أليس ذلك بسبب ثرائها الفتان، مجهولها الضبابي، والأمل المتواري بداخلها؟ لن نعبأ أبداً بثقل ما تحمله أكتافنا، وسنحياها بجسارة رغم كلّ شيء... نحن شعب الصين العظيم...

وبينما أنا سابح باندفاع وسط تيار الأفكار الجارف، صدم عينيّ نور ساطع. كان القطار أساساً قد غادر المحطّة منذ أمد، وقد أنارت السماء، وفي الخارج بحيرة تلمع متوهجة تحت شعاع الشمس.

---

(1) محافظة تقع في مقاطعة خه بي.

(2) مدينة في مقاطعة جيانغ شي يُطلق عليها عاصمة الخزف.

(3) تشين خوانغ داو: مدينة في مقاطعة خه بي.

(4) أزهار الجيان: أزهار صغيرة ذات لون أبيض.

(5) تانغ شان: مدينة في مستوى محافظة تقع في مقاطعة خه بي.

(6) تشينغ داو: مدينة ساحلية في مقاطعة شان دونغ.

(7) من العادات الصينية في ليلة الزفاف أن يذهب أصدقاء وأقارب العروسين أمام بيتهما ويُحدثوا جلبة ويمازحوهم.

(8) الأبراج الصينية عبارة عن 12 حيواناً مختلفاً، وتكون وفقاً للأعوام لا الشهور.

(9) الساجار أشبه بإناء فخاري يُرص فيه الخزف لحفظه في الفرن.

(10) عام 1966 هو العام الذي بدأت فيه الثورة الثقافية الكبرى في الصين، واستمرت حتى عام 1976، كانت فترة فوضى في البلاد، تم فيها اضطهاد عدد كبير من الناس وخصوصاً من المثقفين، والإطاحة بعدد من الجيل القديم للثوريين البروليتاريين.

(11) قرارات اتخذتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بقيادة ماو تسي تونغ في يوليو 1966، وتُعتبر أجندة الثورة الثقافية الكبرى.

(12) حملة مناهضة اليمنيين، وتُعرف أيضاً بالحملة ضد اليمينيين، دعا إليها الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو تسي تونغ عام 1957، وراح ضحيتها مئات الآلاف من بينهم العديد من المثقفين والكتاب، وتم إقصاؤهم إلى إصلاحيات للعمل بالسخرة وتصنيفهم على أنهم يمنيون، وفي الحقيقة أنها كانت نتاج فخّ نصبه ماو تسي تونغ لرصد معارضيه، حملت اسم «حملة المئة زهرة»، والتي دعت -ظاهراً- لحرية الرأي والتعبير.

(13) الإصلاح بالعمل: من طرق الحبس والإعتقال التي استُخدمت في الصين، عن طريق إرسال المذنبين إلى معسكرات للعمل القسري. وبي دا خوانغ منطقة تقع أقصى شمال الصين.

(14) الأشياء الأربعة القديمة: مصطلح أُطلق أيام الثورة الثقافية، ويشير إلى العادات،

بالتحرّر منها وتدميرها.

(15) الحرس الأحمر: هم مجموعة من الشباب من طلاب المدارس والجامعات كانوا بمثابة حماة الثورة الثقافية، وقد أشاعوا الفوضى في البلاد.

(16) قلنسوة العار، من أشكال الإهانة والتعذيب والانتقاد التي أتبعتها الثورة الثقافية، يضعون على رؤوس من يقولون إنهم مناهضون للثورة الثقافية قلانس ورقية طويلة مخروطيّة الشكل يبلغ طول الواحدة منها في حدود المتر الواح، وهي تحمل عبارات إداناتهم.

(17) الأفران المشار إليها هنا هي أفران ضخمة مثل حُجرات كبيرة صخرية، يتمّ إغلاقها بالطين والطابوق.

(18) جلسات النقد العامّة أو اجتماعات النقد العلنية كانت من أساليب الإهانة والتعذيب النفسي التي اتّبعتها الثورة الثقافية؛ يُساق المتهمون بمعاداة الثورة إلى ميدان عام، وتتم إهانتهم بحضور الملأ، وتعلّق على صدورهم لافتات كبيرة تحمل إداناتهم، والتي أحياناً ما تكون مصنوعة من الحديد، فتكون ثقيلة بما يزيد في تعذيبهم. يقوم الحرس الأحمر بالإعلان عمّا ارتكبوه من جرائم أمام أنظار الجميع. كذلك تكون هناك أشكال مختلفة للتعذيب مثل حني ظهورهم، قص شعورهم، وسكب الحبر فوق رؤوسهم.

(19) من المعادن التي تحتوي عليها الصخور، وتدخل عادة في صناعة الخزف وغيره من الصناعات.

(20) لفائف الأقدام أو طي الأقدام، هي عادة صينية استمرت قرابة ألف عام، تُلفّ أقدام الفتيات في سنٍّ مبكرة، فلا تنمو أبداً، فتصير مثل قدم طفل.

(21) خطاط ورسام صيني يرسم بالحبر.

(22) اليوان العملة الصينية، الجياو عُشر اليوان، والفين عُشر الجياو.

(23) من الفنون الصينية التقليدية، يعتمد على تفريغ الورق في عمل لوحات فنية.

(24) أو ما يُعرف بـ «حافة الماء»، من أشهر أربع روائع كلاسيكية صينية، والتي انطلقت من جبل ليانغ. وقد حوّلت إلى مسلسل تليفزيوني ياباني عُرض في السبعينيات من القرن الماضي عُرف عربياً باسم مسلسل «حافات المياه». كما قامت الصين بإنتاجها كمسلسل عام 1998، وأعيد إنتاجه عام 2011، وعُرض في التلفزيون الصيني المركزي.

(25) شه تشيان هو واحد من شخصيات الرواية.

(26) مصطبة المدفأة: يستخدم أهل الشمال في الصين، وخاصة في الأرياف، الحجارة لعمل مصطبة عريضة طويلة مرتفعة عن الأرض، تكون مدفأة للمنزل وفي نفس الوقت مكاناً للنوم. ويطلق عليها بالصينية اسم كانغ.

(27) وذلك نسبة إلى خطاب ألقاه ماوتسي تونغ في المجلس الأعلى للدولة في دورته الحادية عشر تحت عنوان :«حول المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب». ونشر في «صحيفة الشعب» عام 1957.

(28) في اللغة الصينية لا تستخدم الحروف، بل الرموز، وكل رمز يحمل معنى لكلمة.

(29) أو ما يُعرف بالماهجونغ، وهي لعبة صينية شعبية تُلعب بأحجار شبيهة بأحجار الدومينو، وبعدد 136 أو 144 حجراً، وتُلعبُ عادة بأربعة لاعبين.

(30) أحد أشهر المعابد والمزارات السياحية في بكين.

٣٧٠٥٨١٨٦٥٨

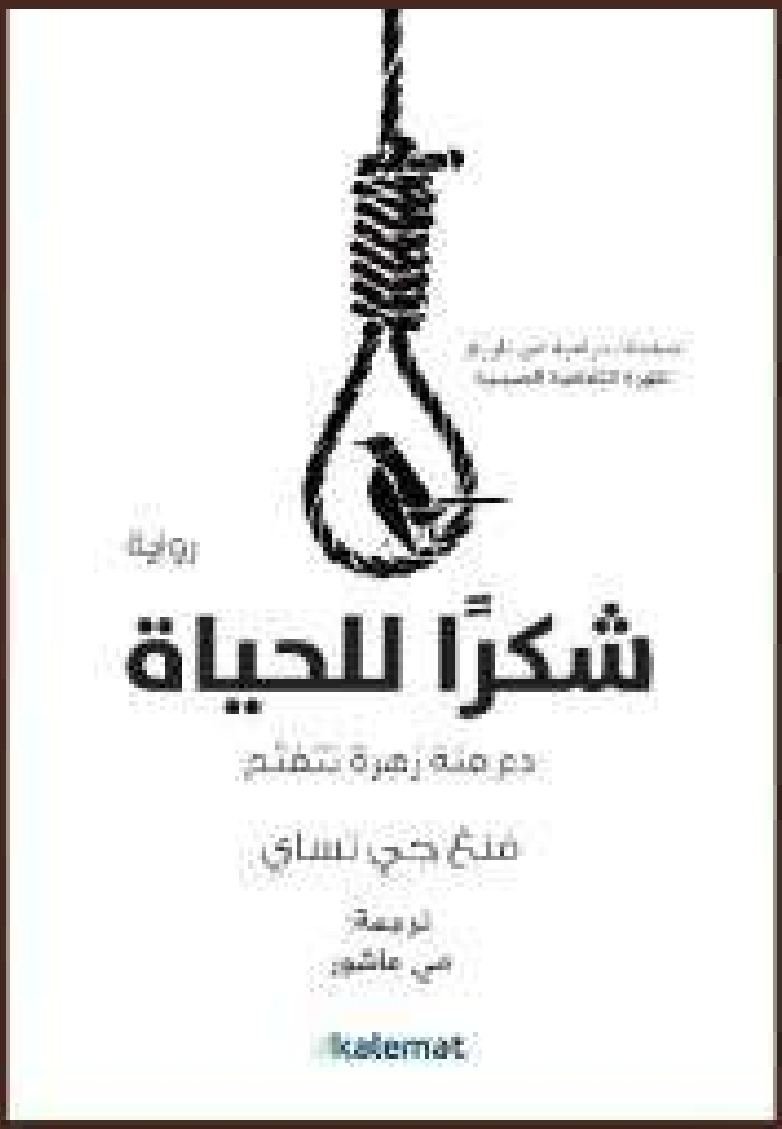

تم الرفع واسطة
Telegram@mbooks90